جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

رسالة عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب
رضي اللّه عنهما
فــي وصــف مصـــر
دراسـة بلاغيـة نقـدية

دكتـــور
صلاح حبيب سليمـان
الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد بالكلية
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنـات بســوهاج

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواهب طلاقة اللسان ، وحسن الوصف والبيان ، وأصلي وأسلم على المبعوث بخاتم الرسالات للإنس والجان ، وعلى آله ، وذريته ، وصحبه ، ومن اهتدى بهديه ، واقتدى بقوله وفعله ، وسار على نهجه ، إلى يوم الدين .

وبعـــــــد

فمن يطالع تراثنا النثري ، ويمعن النظر فيه ، يجده منطوياً على العديد من الجواهر المكنونة ، والدُّرَرِ المصونة ، التي ضَنَّ عليها أحفاد قائليها بالعناية والاهتمام ، حيث لم يدرسوها دراسات جادة ، تبرز ما تتميز به من خصائص لغوية وبلاغية ، وصرفوا هممهم إلى الشعر، مفضلين دراسته على دراسة هذه الجواهر والدرر ، إلا ما اشتهر منها ، وصار ملء السمع والبصر ، كخطب أكثم الصيفي ، وقس بن ساعدة ، وخطب النبي صلى الله عليه وسلم ، وخطب الصحابة ، وخطب مشاهير بني أمية وبني العباس ، وصرفوا هممهم نحو الشعر، مفضلين دراسته على دراسة هذه الجواهر والدرر ، ظآنين أن جودة الكلام وبلاغته لا تكون إلا في المنظوم ، مع أن في الكلام المنثور ما لا يقل شأناً من حيث البلاغة ، واالبراعة ، ودقة التصوير ، وحسن التعبير ، وروعة الأداء ، عن الشعر .

ولقد استوقفني – طويلاً – وأنا أتصفح كتابَي : جمهرة خطب العرب ، وجمهرة رسائل العرب ، للأستاذ الدكتور / أحمد زكي صفوت ، العديد من هذه الجواهر والدرر؛ لما تنطوي عليه من خلابة الأسلوب ، وحلاوة اللفظ ، وروعة المعنى ، وحسن التصوير ، وجودة النظم ، ووجدت فيها ما يجعلها صالحة لأن تكون محل دراسات بلاغية وأدبية لنيل إحدى الدرجات العلمية ، وإن كان بعضها قد درس إلا أنه درس من جانب واحد أو أكثر ، وبقى في حاجة إلى دراسات أخرى في جوانب مختلفة .

وكان مما استحوذ على إعجابي واستحساني درة نفيسة للصحابي الجليل عمرو بن العاص صاغها في رسالة قصيرة لعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – بعد أن استقر لهما فتح مصر ، وطلب عُمَرُ إلى عمرو أن يصف له هذه البلاد ، فوصفها له في كلمات معدودة ، وعبارات محدودة ، وسطور جد قليلة ، بأسلوب بليغ رائع ، ونظم قوي متماسك ، ووصف موضح مبين ، يكشف عما حبى الله به هذه البلاد من نعم ، وما مَنَّ به عليها من بركات ، غير أنها لم تسلم – كغيرها من كلام البشر – من القصور في بعض الفقرات ؛ مما دفعني إلى التوجه لها بالتحليل والنقد ؛ لأبين ما تتسم به من حسن وجودة ، وما يكتنفها من تقصير وهنات ؛ ولأقف أنا والقارئ ــ في هذه الظروف التي تمر بها بلادنا ــ على مكانة هذا الوطن في قلوب أجدادنا الذين سبقونا بالإيمان وبالعيش في كنف هذه البلاد ، وذلك من خلال وصف من رآها وإعجاب من لم يرها بها من خلال هذا الوصف .

وقد قدمت لهذا التحليل بمقدمة ، فتمهيد عن عمرو رضي الله عنه ، ثم ذكرت نص الرسالة كما جاء في كتاب : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى ، وكتاب : جمهرة رسائل العرب للدكتور / أحمد زكي صفوت ، ثم أعقبته بخاتمة لخصت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج ، ثم ختمت البحث بفهرسة للمصادر والمراجع التي أفدت منها خلال هذه الدراسة ، وأخرى للموضوعات التي احتوت عليها الرسالة .

والله حسبي وإليه أنيب

صلاح حبيب سليمان

الأستاذ المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بسوهاج

تمهيـــــــد

عمــرو بن العـــاص هو : عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سُعَيـد بـن سهم بن عمرو بن حُصَيصِ بن كعب بن لؤي بن غالـب القرشي السـهمي ، وأمـه سَلَمة بنت حَرمَلة الملقبة بالنابغة بنت حرملة ، وهي سَبِيَّةٌ من بني جلاَّن بن عَتيك بن أسلم بن يَذكُر بن عَنَزَةَ ، وأخوه لأمه عمرو بن أثاثة العَدَوي ، وعقبة بن نـافع بـن عبد قيس الفِهْـري ، كان يُكْنَى بأبي عبد الله ، وقيل : بأبي محمد .

أرسلته قريش إلى النجاشي ليسلم إليهم من عنده من المسلمين ، وهم جعفر بن أبي طالب ومن معه ، فلم يفعل ، وقال : يا عمرو ! وكيف يعزُبُ عنك أمرُ ابن عمـك ؟! فوا الله إنه لرسول الله حقًا ! قال : أنت تقول ذلـك ؟! فقـال : إي والله ، فـأطعني ، فخرج من عنده مهاجرًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسلم عام خيبـر ، وقيـل : أسلم عند النجاشي ، ثم توقف إلى هذا الوقت .

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم أميـرًا علـى سـرية إلـى ذات السلاسـل إلى أخوال أبيه العاص بن وائل يدعوهم إلى الإسلام ، ويستنفرهم إلى الجهاد ، فسـار في ذلك الجيش وهم ثلاثمائة ، فلما دخل بلادهم استمد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأمده ، وبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح ، وأبا بكر ، وعمر، وقـال لأبـي عبيـدة : " لا تختلفا " ، فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه قال له عمرو : إنما جئتَ مددًا لي ، فقال أبو عبيدة : لا ، ولكني أنا على ما أنا عليه ، وأنت على ما أنت عليه ــ وكـان أبو عبيدة رجلاً سهلاً ليناً هيناً عليه أمر الدنيا ــ فقال له عمرو : فإني أمير عليـك ! قال فدونك ! فصلى عمرو بالناس .

واستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على عُمان ، فلم يزل عليها إلى أن توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعد رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم ولاه أبـو بكـر رضـي الله عنـه على الشام ، فشهد فتوحه ، ثم ولاه عمر رضي الله عنه على فلسـطين ، ثـم سَـيَّرَه

في جيش إلى مصر، فافتتحها ، ولم يزل واليًا عليها إلى أن مات عمر ، فأمَّرَه عليها عثمان أربع سنوات أو نحوها ، ثم عزله عنها ، فاعتزل بفلسطين ، وكان يأتي المدينة أحيانًا ، وكان يطعن على عثمان ، فلما قُتل عثمانُ سار إلى معاوية وعاضده ، وشهد معه " صفين " ــ ومقامه فيها مشهود ــ ثم لما استقر الأمر لمعاوية سَيَّرَه إلى مصر، فاستنقذها من يد محمد ابن أبي بكر عامل عليٍّ عليها ، وظل واليًا عليها إلى أن مات سنة ثلاث وأربعين ، وقيل : سنة سبع وأربعين ، وقيل : سنة ثمان وأربعين ، وقيل : سنة إحدى وخمسين ، والأول أصح ، وكان موته ليلة عيد الفطر ، فصلى عليه ابنه عبد الله ، ودفن رضي الله عنه بالمقطم ، وولي بعده ابنه ، ثم عزله معاوية ، واستعمل بعده أخاه عتبة بن أبي سفيان [١] .

ومن مآثره رضي الله عنه : أنه كان يخضب بالسواد ، وكان من شجعان العرب وأبطالهم ، وكان يضرب به المثل في الفطنة والدهاء والحزم ، ومن أقواله رضي الله عنه : " زَلَّةُ الرِّجلِ عَظمٌ يُجْبَر ، وزَلَّةُ اللسَانِ لا تُبْقِي ولا تَذَر " ، و : " إني لأصبر على الكلمة لهي أشد عليَّ من القبض على الجمر ما يحملني على الصبر عليها إلا التخوف من أخرى شر منها " و : " فضل العقل على المنطق حكمة ، وفضل المنطق على العقل هجنة " و : " كثرة الأصدقاء كثرة الغرماء " ، و : " إمام غشوم خير من فتنة تدوم " ، وكان رضي اللّه عنه يقول : لوددت لو أني رأيت رجلاً لبيباً حازماً

١ــ راجع في ترجمته : أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير ٤ / ٢٤٤ وما بعدها تحقيق ا / محمد إبراهيم البنا وآخرين ــ ط : دار الشعب .

ــ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ٤ / ٥٣٧ تحقيق ا / عادل أحمد عبد الموجود ، وآخرين ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط / أولى ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م .

ــ سير أعلام النبلاء للذهبي ٣ / ٥٤ تحقيق / محمد نعيم العرقسوسي ، و مأمون صاغرجي ــ نشر : مؤسسة الرسالة ــ ط / ثالثة ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٥ م .

قد نزل به الموت فيخبرني عن الموت ، فلما أُنزل به الموت قيل له : يا أبا عبد اللّه كنت تقول أيام حياتك : لوددت أني رأيت رجلاً لبيباً حازماً قد نزل به الموت يخبرني عن الموت ، وأنت ذلك الرجل اللبيب الحازم وقد نزل بك الموت ، فأخبرنا عنه ، فقال: أجد كأن السماوات انطبقن على الأرض وأنا بينهما ، وكأن نفسي تخرج على ثقب إبرة ، ثم أنشأ يقول :

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في تلال الجبال أرعى الوعولا[١]

قال صلى الله عليه وسلم فيه : " أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص " [٢] ، و قال عليه الصلاة والسلام : " إن عمرو بن العاص من صالحي قريش " [٣] .

١ــ أدب المجالسة وحمد اللسان ليوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري صـ ٩٢ تحقيق / سمير حلبي ــ نشر : دار الصحابة بطنطا ــ ط / أولى ١٤٠٩ هـ ــ ١٩٨٩م .

ــ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ٢ / ٢٣٥، ٤ / ٩٩ ط : دار المعرفة ببيروت .

ــ التذكرة للقرطبي صـ ٢٠ تحقيق / طه عبد الرءوف سعد ط : دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة .

ــ قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المالكي ٢ / ٢٠٩ ــ تحقيق د / عاصم إبراهيم الكيالي ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط / ثانية ١٤٢٦ هـ ــ ٢٠٠٥ م .

ــ التوبيخ والتنبيه لعبد الله بن حيان صـ ٩٤ تحقيق / مجدي السيد إبراهيم ــ نشر : مكتبة الفرقان بالقاهرة .

ــ الزهد لابن السري ٢ / ٥٦٣ ــ تحقيق / عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي ــ نشر : دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ــ الكويت ــ ١٤٠٦ هـ .

ــ المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر أحمد بن محمد الدينوري صـ ٦٨٥ــ نشر : دار ابن حزم ــ بيروت ــ ط / أولى ١٤٢٣ هـ ــ ٢٠٠٢ م .

٢ - تحفة الأحوذي ، مناقب عمرو بن العاص ، الحديث رقم : ٣٩٣٣ : ١٠ / ٣٤٢ .

٣ - المرجع السابق : الحديث رقم : ٣٩٣٤ : ١٠ / ٣٤٣ .

والآن إلى نص الرسالة :

نص الرسالة

قال بعض المؤرخين : إنه لما استقر عمرو بن العاص رضي الله عنه على ولاية مصر كتب إليه عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه : أنْ صِفْ لي مصرَ ؛ فكتب إليه : ورَدَ كِتَابُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ يَسْأَلُنِي عَنْ مِصْرَ : اعْلَمْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أنَّ مِصْرَ قَرْيَةٌ غَبْرَاء ، وشَجَرَةٌ خَضْرَاء ، طُولُهَا شَهْر ، وعَرْضُهَا عَشْر ، يَكْنُفُهَا جَبَلٌ أَغْبَر ، ورَمْلٌ أَعْقَر ، يَخُطُّ وَسْطَهَا نِيلٌ مُبَارَكُ الغُدْوَات ، مَيْمُونُ الرَّوْحَات ، تَجْرِي فيه الزِّيَادَةُ و النُّقْصَانُ كَجَرْيِ الشَّمْسِ والقَمَرِ ، لَهُ أَوَانٌ يَدِرُّ حِلا بُه ، وَيَكْثُرُ فيهِ ذُبَابُه ، تُمِدُّهُ عُيُونُ الأَرْضِ ويَنَابِيعُهَا ، حَتَّى إِذَا مَا اصْلَخَمَّ عَجَاجُه ، وتَعَظَّمَتْ أَمْوَاجُه ، فَاضَ عَلَى جَانِبَيه ، فَلَمْ يُمْكِنِ التَّخَلُّصُ مِنَ القُرَى بَعْضِهَا إلى بَعْضٍ إلا فِي صِغَارِ المَرَاكِب ، وَخِفَافِ القَوَارِب ، وَزَوَارِقَ كَأَنَّهُنَّ فِي المَخَايِلِ وُرْقُ الأَصَائِل ، فَإِذَا تَكَامَلَ فِي زِيَادَتِه ، نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ كَأَوَّلِ مَا بَدَأَ فِي جِرْيَتِه ، وَطَمَا فِي دِرَّتِه ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَخْرُجُ أَهْلُ مِلَّةٍ مَحْقُورَة ، وَذِمَّةٍ مَخْفُورَة ، يَحْرُثُونَ بُطُونَ الأَرْض ، وَيَبْذُرُونَ بِهَا الحَبّ ، يَرْجُونَ بِذلكَ النَّمَاءَ مِنَ الرَّبّ ، لِغَيْرِهِمْ مَا سَعَوا مِنْ كَدِّهِمْ ، فَنَالَهُ مِنْهُمْ بِغَيرِ جِدِّهِمْ ، فَإِذَا أَحْدَقَ الزَّرْعُ وَأَشْرَق ، سَقَاهُ النَّدَى ، وَغَذَاهُ مِنْ تَحْتِهِ الثَّرَى ، فَبَيْنَمَا مِصْرُ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِين لُؤْلُؤَةٌ بَيْضَاء ، إذا هِيَ عَنْبَرَةٌ سَوْدَاء ، فَإِذا هِي زُمُرُّدَةٌ خَضْرَاء ،

فـــإذا هِـــي دِيبَاجَـــةُ رَقْشَـــاء ، فَتَبَـــارَكَ اللهُ الخَـــالِقُ لِمَـــا يَشَـــاء ، والـــــذي يُصْـــــلِحُ هـــــذه الـــــبِلادَ ويُنَمِّيهَـــــا ، وَيُقِـــــرُّ قَاطِنِيهَـــــا فِيهَـــــا ، ألاَّ يُقْبَـــــلَ قَـــــولُ خَسِيسِـــــهَا فِـــي رَئِيسِـــهَا ، وأَلاَّ يُسْـــتَأْدَى خَـــرَاجُ ثَمَـــرَةٍ إِلاَّ فِـــي أَوَانِهَـــا ، وَأَنْ يُصْـــرَفَ ثُلُـــثُ ارْتِفَاعِهَـــا فِـــي عَمَـــلِ جُسُـــورِهَا وَتُرَعِهَـــا ، فـــإذا تَقَـــرَّرَ الحَـــالُ مَـــعَ العُمَّـــالِ فِـــي هَـــذِهِ الأَحْـــوَالِ ، تَضَاعف ارْتِفَاعُ المَالِ ، واللهُ تَعَالَى يُوَفِّقُ فِي المَبْدَأ والمَآل .

****

فلمـــا ورد الكتـــاب علـــى عمـــر بـــن الخطـــاب رضـــي الله عنـــه قـــال : " للهِ دَرُّكَ يا بنَ العَاصِ ! لَقَدْ وَصَفْتَ لِي خَبَراً كَأَنِّي أُشَاهِدُهُ " [١] .

---

[١] ـ راجع الرسالة في : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين بـــن تغـــري بـــردي ١ / ٣٢ : ٣٣ ــ ط : دار الكتب المصرية .

*ــ جمهرة رسائل العرب د / أحمد زكي صفوت ١ / ١٩٠ : ١٩١ ــ نشـــر : المكتبـــة العلميـــة ببيروت .

والآن إلى تحليل الرسالة :

البداية بوصف أرض مصر

ومسطحها

من يتأمل هذه الرسالة يجدها ، جيدة ، موجزة ، بليغة ، اشتملت على وصف صحارى مصر ووادیها ، وتربتها وأراضيها ، وطولها وعرضها ، وجبالها ورمالها ، ونيلها وجريه فيها بالزيادة والنقصان ، وكيفية تنقل أهلها في الزيادة من قطر إلى قطر ، وقرية إلى قرية ، ثم نزولهم إلى الوادي بعد نقصان النيل لزراعته ، وانتظار ثمرته ، مع الإشارة إلى ما كان يقع عليهم من ظلم الرومان ، واحتكار خراج هذه الأرض ، ثم وصف ملامح مصر في تقلبها في فصول السنة من لون إلى لون ، ومن صورة إلى أخرى ، ثم الختام بالإشارة إلى سبب استقرار هذه البلاد وازدهارها .

و قد بدأها رضي الله عنه بوصف أرض مصر ومسطحها فقال : " اعْلَمْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أنَّ مِصْرَ قَرْيَةٌ غَبْرَاء ، وشَجَرَةٌ خَضْرَاء ، طُولُهَا شَهْر، وعَرْضُهَا عَشْر ، يَكْنُفُهَا جَبَلٌ أَغْبَر ، وَرَمْلٌ أَعْفَر " .

وقد قدم لهذا الوصف بقوله : " وَرَدَ كِتَابُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ يَسْأَلُنِي عَنْ مِصْرَ " .

باستخدام صيغة المضي " ورد " ، إشارة إلى أن الرسالة جاءت رداً على كتاب ورد إليه من عمر رضي الله عنه يطلب إليه فيه وصف مصر ، وقد اشتمل هذا التقديم على التعبير عن عمر رضي الله عنه بلقبه : " أمير المؤمنين " ، والدعاء له بطول العمر، وامتداد الأجل ، بطريق الاعتراض : " أطال الله بقاءه " على عادتهم في مثل هذه المقامات من التأدب مع الخلفاء والحكام ، ويأت بعد ذلك التعبير بصيغة المضارعة : " يسألني " بدلاً من : وقد سألني ؛ لاستحضار الصورة ، وكأن عمر

رضي الله عنه يسأل عمراً مشافهة ، ونلمح من وراء هذه الصياغة اشتياق عمرو للتحدث إلى عمر رضي الله عنهما .

وبعد هذا التقديم يأتي الوصف ممهداً له بصيغتي الأمر والنداء لزيادة اللفت والتنبيه ، مع إعادة لقب : " أمير المؤمنين " بطريق الاعتراض مرة أخرى ، زيادة في التأدب والتلطف : " اعْلَمْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أنَّ مِصْرَ قَرْيَةٌ غَبْرَاء ، وشَجَرَةٌ خَضْرَاء " .

والقرية : هي المصر الجامع [١] ، والغبراء : مؤنث : أغْبَرَ ، من الغُبار ، وهو التراب ، والواو في : " وشَجَرَةٌ خَضْرَاء " للتقسيم ؛ إذ الكلام على تقسيم أرض مصر قسمين : صحراء غبراء ، ووادٍ أخضر .

والأسلوب مبني على التشبيه ، حيث شبه صحاري مصر بالقرية الغبراء ، وشبه واديها بالشجرة الخضراء ، وحذف أداة التشبيه ووجه الشبه ، ودل على وجه الشبه المحذوف بوصف المشبه به ؛ ليصير التشبيه بعد هذا الحذف وجيزاً ، بليغاً ، قويَّ المشابهة بين الطرفين ، مع تأدية الغرض المطلوب ، وهو بيان حال المشبه .

ونلمح في تنكير المشبه به : " قرية وشجرة " دلالة على التعظيم ، وهي دلالة مناسبة لانبهار المتكلم رضي الله عنه بما يراه في مصر من الجمع بين بيئتين مختلفتين .

كما نلمح من خلال تشبيه صحاري مصر بالقرية إشارة إلى عمارة بعض هذه الصحارى في ذلك الوقت بالسكان ، خصوصاً تلك الصحارى القريبة من مجرى النيل ، والتي كان يأوي إليها أهل مصر وقت الفيضان ، وآثارهم الباقية في هذه الأماكن حتى اليوم خير دليل على ذلك .

ولك أن تتخيل قيمة ما أداه التشبيه بالشجرة ووصفها بالخضرة في هذا السياق من إشارة إلى ارتفاع النبات والتحام الخضرة ، وكأن وادي مصر

---

[١] - لسان العرب : قرو .

يتحول بعد زراعته إلى بساط سندسي أخضر ممتد بلا فجوات ، أو كأن ما فيه من النبات صار لشدة تداخله وتشابكه كشجرة واحدة ، وارفة الأوراق ، ممتدة الظلال.

ومن جودة الصياغة وبلاغة الوصف في هذا السياق أن جمع عمرو رضي الله عنه بين القرية الغبراء والشجرة الخضراء ، وقابل بينهما ؛ لتقف كل نفس على مدى ما بينهما من فروق ، ثم قدم رضي الله عنه التشبيه بالقرية الغبراء ، على التشبيه بالشجرة الخضراء ؛ ليتدرج بالأسلوب من الأدنى إلى الأعلى ، ويرقى به إلى ما هو أسرُّ للعيون ، وأبهج للقلوب .

ومما زاد من جمال الأسلوب في هذين التشبيهين ، ذلك التناغم الصوتي والإيقاع الموسيقي الرائع ، الناتج عن ختام طرفيه بالسجع المتوازي بين الفاصلتين : " غبراء " و " خضراء " ، واللتين اتحدتا في الوزن والتقفية ونوع الحروف إلا في حرفين ، فكانتا أشبه بالمتجانسين ، أو هما متجانسان تجانساً صغيرًا ، أو تجانساً في مرحلة المهد ، كما يطلق أستاذنا د / محمد محمد أبو موسى على مثل هذا النوع من الكلمات [١] .

وهذا الذي قلته في هاتين الجملتين ينطبق على كل الجمل المسجوعة في هذه الرسالة ، وهي كثيرة جداً ، ومنها قوله التالي : " طُولُهَا شَهْر، وعَرْضُهَا عَشْر " ، والذي جاء وصفاً بطريق الكناية لمسطح أرض مصر بأنه مستطيل الشكل ، وقد بُني هذا الكلام على الإيجاز بالحذف ؛ إذ الأصل : طولها مسيرة شهر ، وعرضها مسيرة

---

[١] – السجع المتوازي هو : أن تتحد الفاصلتان في الوزن والتقفية مع اختلاف ما في القرينتين من ألفاظ أو أكثره فيهما . وراجع الإيضاح ١٠٧/٦ تحقيق د / محمد عبد المنعم خفاجي ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ ط / ثالثة ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٣م ، وشروح التلخيص ٤/ ٤٤٨ ط : دار الإرشاد الإسلامي – بيروت ، والمراد بالجناس الصغير كل لفظين اختلفا في أكثر من حرف وتساويا في الوزن والروي . وراجع كتاب : مدخل إلى كتابي عبد القاهر د / محمد محمد أبو موسى صـ ١٢٣ ـ نشر: مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ ط / أولى ١٤١٨ هـ ــ ١٩٩٨ م .

عشرة أيام ، فحُذف المضاف ، والمعدود ، وحذفت تاء التأنيث من : " عشرة " جوازاً لحذف المعدود ، ومثله في حذف تاء التأنيث من " عشرة " قوله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِسِتٍّ مِنْ شَوَّالٍ فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ " [١] .

و " يَكْنُفُهَا " في قوله : " **يَكْنُفُهَا جَبَلٌ أَغْبَرُ ، وَرَمْلٌ أَعْفَرُ** " معناه : يحيط بها ويسترها ، يقال : كَنَفَهُ يَكْنُفُهُ كَنَفاً ، واكْتَنَفَهُ يَكْتَنِفُهُ اكْتِنَافاً ، أي : أحاط به ، وفى الأساس : هو في كَنَفِ فلانٍ ، وهم في أكناف الحجاز ، أي : في نواحيه ، وَتَكَنَّفُوهُ واكْتَنَفُوهُ : أحاطوا به من كل جانب ، وكَنَفْتُهُ : حَفِظْتُهُ ، و في الزاهر في معاني كلمات الناس : يقال : قد كَنَفَ فلانٌ فلاناً إذا حَاطَهُ وستَرَهُ ، وكل شيء ستر شيئاً فقد كنفه ، وهو كنيف له ، وفي مقاييس اللغة : الكاف والنون والفاء : أصلٌ صحيح واحد يدلُّ على سَتْر ، و من ذلك الكَنِيف ، وهو الساتر[٢] .

فمادة الكلمة تدور حول الإحاطة والستر ، وكأن جبال مصر ورمالها التي تحيط بها تسترها وتمنعها من اقتحام الآخرين ، وصياغة الكلمة على المضارعة تستحضر صورة هذه الجبال والرمال ، وهي تحيط بها من جوانبها .

وأشير إلى أن البلاغيين القدامى قصروا استحضار الصورة بصيغة المضارعة على الصيغة إذا كانت تحكي حدثاً قد وقع في الزمن الماضي ، وأضاف شيخنا د/ محمد محمد أبو موسى أن المضارعة تستحضر الصورة من المستقبل

---

[١] - راجع جواز حذف تاء التأنيث مع المذكر إذا حذف المعدود في : شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ٢ / ٣٦٧ــ ط : دار الفكر الإسلامي ، وعدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك د / محمد محيي الدين عبد الحميد ــ نشر : دار الطلائع بمصر ، والحديث في سنن أبى داود ٢ / ٢٩٩ ط : دار الكتاب العربي ببيروت .

[٢] - راجع : الزاهر في معاني كلمات الناس لأبي بكر الأنباري ١ / ٢٨٥ تحقيق د / حاتم صالح ــ نشر : مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط / أولى ١٤١٢ هـ م ، و مقاييس اللغة لابن فارس ٥ / ١١٦" ك . ن . ف " .

كذلك [١]، و أضيف أن استحضار الصورة ملازم لصيغة المضارعة مطلقاً ، سواء أكانت حقيقية دالة على الحال أو الاستقبال ، أم كانت موضوعة موضع الماضي ، ولعل تعليقَ عُمَرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه على الرسالة بقوله : " للهِ دَرُّكَ يا بنَ العَاصِ ! لَقَدْ وَصَفْتَ لِي خَبَراً كَأَنِّي أُشَاهِدُهُ " خير دليل على استحضار الصورة بصيغ المضارعة الدالة على الحال ؛ إذ لا يوجد في هذه الرسالة صيغة وضعت موضع الماضي إلا قوله : " يسألني " ، ولا يوجد فيها ما يدل على الاستقبال ألبتة ؛ لأنها تصف واقع مصر كما يراه عمرو رضي الله عنه .

و" أَغْبَر " مذكر غَبْرَاء الذي مضى ، وأعْفَر مذكر عَفْرَاء والعَفَرَ ، والعَفَرُ : التراب ، والعُفْرَةَ : لون قشرة الأرض ، والأعْفَرُ : الرمل الأحمر ، ويطلق على الأبيض أيضاً [٢] ، والجملة تصف مصر من الخارج ، فتصفها بأنها محاطة بجبال يميل لونها إلى الغبرة ، ورمال منها ما هو أحمر ومنها ما هو أبيض ، وفي هذا الترتيب تدرج من الخارج إلى الداخل ؛ إذ الجبال في أقصى الأطراف ، ثم الرمال بعدها ، ثم الوادي الذي يتوسطه نهر النيل .

ومن بلاغة نظم هذه الجملة أن جمعت بطريق الطباق بين لونين مختلفين : غبرة الجبال ، وصفاء حمرة أو بياض الرمال ؛ وعبر عنهما بلفظين متجانسين تجانساً صغيرًا : " أغبر " و" أعفر " ، مع وقوع كل منهما طرفاً لجملة متساوية مع أختها في عدد الحروف ؛ ليشكل تواطؤهما على وزن وروي واحد سجعاً متوازياً ، منح الفقرة نغمة موسيقية تستهوي الآذان وتستميل القلوب ، مع تحديد كل لون تحديداً دقيقاً مطابقاً لواقعه كما نألفه .

---

[١]- راجع : شرح أحاديث من صحيح البخاري د / محمد محمد أبو موسى صـ ٢٩٦ـ نشر : مكتبة وهبة بالقاهرة ـ ط / أولى ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م .

[٢]- لسان العرب : عفر .

وصـــــف نيـــــلها

وفي هذا يقـــــول : " يَخُطُّ وَسْطَهَا نِيلٌ مُبَارَكُ الغُدْوَات ، مَيْمُـونُ الرَّوْحَـات ، تَجْرِي فيه الزِّيَادَةُ و النُّقْصَانُ كَجَرْيِ الشَّمْسِ والقَمَـرِ ، لَـهُ أَوَانٌ يَـدِرُّ حِـلا بُـه ، وَيَكْثُرُ فيهِ ذُبَابُه ، تُمِدُّهُ عُيُونُ الأَرْضِ ويَنَابِيعُهَا ، حَتَّـى إِذَا مَـا اصْـلَخَمَّ عَجَاجُـه ، وَتَعَظَّمَتْ أَمْوَاجُه ، فَاضَ عَلَى جَانِبَيه ، فَلَمْ يُمْكِـنِ الـتَّخَلُّصُ مِـنَ القُـرَى بَعْضِـهَا إلى بَعْـضٍ إلا فِـي صِـغَارِ المَرَاكِـب ، وَخِفَـافِ القَـوَارِب ، وَزَوَارِقَ كَـأَنَّهُنَّ فِي المَخَايِلِ وُرْقُ الأَصَائِلِ ؛ فَإِذَا تَكَامَلَ فِي زِيَادَتِه ، نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ كَأَوَّلِ مَـا بَـدَأَ فِي جِرْيَتِه ، وَطَمَا فِي دِرَّتِه " .

وتأمل دقـة الوصـف ، وبلاغتـه ، ونقـل الصـورة بواسـطة المضـارعة في " يَخُطُّ وَسْطَهَا نِيلٌ مُبَارَكُ الغُدْوَات ، مَيْمُونُ الرَّوْحَات " والخَطُّ : الطريق ، يقال : الْزَمْ ذلك الخَطَّ ولا تظلم عنه شيئاً ، والخطُّ : الطريقة المسـتطيلة فـي الشـئ [١] ، ومعنى " يَخُطُّ وَسْطَهَا نِيلٌ " يشقها ويجري في منتصفها ، وفي التعبير بالخط بدلاً من الشق إشارة إلى بديع صنع الخالق – جل وعلا – وقدرته في إجراء هذا النهر كأنـه طريق واضح المعالم ينتصف البلاد لا ينتهي إلى جانب ، وإنما يجري فـي وسـطها حتى النهاية ، وتنكير " نِيلٌ " للتعظيـم والتفخيـم ، ووصفـه بالجملـة الاسـمية : " مُبَارَكُ الغُدْوَات ، مَيْمُونُ الرَّوْحَات " للدلالة على ثبوت هذا الوصف لـه فـي كـل الأوقات ، وبين " الغُدْوَات " و " الرَّوْحَات " طباق يصور بدايـة الرحلـة الميمونـة إلى النيل ونهايتها ؛ إذ الغُدْوَةُ : الخروج أول النهار ، والرَّوَاحُ : الرجوع آخره [٢] ، واليمن بمعنى البركـة ، والبركـة معناهـا : زيـادة الشـئ ونمـاؤه ، وتسـتعمل بمعنى السعادة ، كما أن اليمن يستعمل ضـد الشؤم [٣] ، ووصف النيـل بأنـه :

---

[١] - لسان العرب : خطط .

[٢] - السابق : غدا ــ روح .

[٣] - لسان العرب : برك ــ يمن .

" مُبَارَكُ الغُدْوَات ، مَيْمُونُ الرَّوْحَات " فيه إشارة إلى أنه مصدر خير ، وبهجة ، ونماء ، يَسُرُّ من قصده غادياً ، ويُسعد من رجع عنه رائحاً ، ولا يخفى أن بين الفاصلتين سجعاً متوازياً ، أكسب الفقرة إيقاعاً موسيقياً ، يتناسب مع أنس النفوس بالحديث عن النيل ويمنه وبركته .

وفي الفقرة التالية : " **تَجْرِي فيه الزِّيَادَةُ و النُّقْصَانُ كَجَرْيِ الشَّمْسِ والقَمَرِ** " ينتقل عمرو رضي الله عنه إلى وصف النيل بالجملة الفعلية ، وهو وصف في غاية الدقة والبراعة ؛ لأنه مناسب لحدوث وتجدد الزيادة والنقصان في النيل من وقت لآخر على وجه لا ينقطع ، كما كان وصفه في الفقرة السابقة بالجملة الاسمية : " مُبَارَكُ الغُدْوَات ، مَيْمُونُ الرَّوْحَات " مناسباً لثبوت هذا الوصف فيه ثبوتاً لا ينفك ، وتنويع الأسلوب والانتقال فيه من صياغة إلى أخرى حسب ما يقتضيه المعنى والسياق دليل بلاغة المتكلم رضي الله عنه وبلاغة كلامه الصادر منه ؛ لأن البلاغة ــ كما هو مقرر ــ تقتضي الوصف بالأسماء في المعاني الثابتة ، والوصف بالأفعال في المعاني المتجددة [١] .

وتأمل تأكيدَ تقلُّبِ النيلِ بين الزيادة والنقصان ، وجَرْيِ ذلك فيه على وجه التجدد والحدوث الدائم أبد الآبدين بالتشبيه : " كَجَرْيِ الشَّمْسِ والقَمَرِ" ، وكأنه رضي الله عنه يشير بهذا التشبيه إلى أن زيادة النيل و نقصانه أمر من الأمور الكونية مسخر بقدرة خالق الكون جل وعلا ، كما سُخرت الشمس والقمر تجريان دائبين لتحقيق مشيئة الله في خلق الليل والنهار ، وتقليب المُناخ ، وتنويع المحاصيل صيفاً وشتاءً ، وتنقل الإنسان من حال إلى حال في الكدح والراحة .

والتشبيه هنا مرسل ، مجمل ، حسي الطرفين ، مبين لحال المشبه ، جمع بين ظاهرتين كونيتين ، إحداهما في الأرض ، والأخرى في السماء .

---

[١]- راجع كلام الشيخ عبد القاهر في الفرق بين الوصف بالاسم والوصف بالفعل في دلائل الإعجاز صـ ١٧٤ تحقيق الشيخ / محمود شاكر ط / المدني بجدة ط / ثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م .

ثم انظر إلى الدقة في ترتيب التابع والمتبوع فيما جرى فيه عطف النسق قبل كاف التشبيه وبعدها ، حيث شبه جري الزيادة والنقصان في النيل بجري الشمس والقمر ، فقدم الزيادة في الأول والشمس في الثاني ، وأخر النقصان في الأول والقمر في الثاني ؛ ليعقد مشابهة بين جري الزيادة وجري الشمس ، وأخرى بين جري النقصان وجري القمر ؛ مراعياً في هذا العقد حال الناس أثناء جري الزيادة وجري الشمس ، وأثناء جري النقصان وجري القمر ؛ إذ جرى الزيادة يصحبه فزع ، وهلع ، وهرولة ، أمام النيل إلى الهضاب والتلال ، وبناء للسدود والموانع ، وفي هذا من الجهد والعناء ما فيه ، وكذلك جري الشمس يصحبه خروج إلى الأعمال ، وكد ، وكدح ، وسعي إلى الرزق ، وهذا فيه جهد وعناء أيضاً ، مع الإصابة بلفح الشمس ، أما جري النقصان ، فيصحبه نزول من تلك المرتفعات بهُدُوٍّ ، ولين ، وطمأنينة ، وسعادة بالحرث ، والزرع ، وانتظار للنماء ، ورغد العيش ، وكذلك جري القمر يصحبه أنس ، وسكينة ، وهدوء ، واعتدال للجو ... وهكذا .

و بعد هذا التشبيه البديع ينتقل بنا عمرو رضي الله عنه إلى وصف زيادة النيل بشئ من الإيضاح والتفصيل ، فيقول : " **لَهُ أَوَانٌ يَدِرُّ حِلا بُه ، وَيَكْثُرُ فيهِ ذُبَابُه** " .

والأَوَانُ : الوقت ، و يَدِرُّ : يكثُر ، مأخوذ من قولهم : دَرَّ اللَّبَنُ والدَّمْعُ ونحُوهُما يَدِرُّ ويَدُرُّ دَرًّا ودُرُورًا ، وكذلك الناقة إذا حُلبت فأقبل منها على الحالب شئ كثير قيل : دَرَّت ، وإذا اجتمع اللبن في الضرع من العروق وسائر الجسد قيل : دَرَّ اللبن ، والحِلابُ : اللبن الذي تحلبه [١] ، والمعنى : له وقت يكثر فيه ماؤه ، فقد شبه حال انحدار المياه متدفقةً من النهيرات والعيون والينابيع إلى مجرى النيل ، بحال تجمع اللبن في الضرع من العروق وسائر الجسد ، ثم حذف الحالة الأولى ، واستعار لها الحالة الثانية ، بطريق الاستعارة التصريحية المركبة ، أو الاستعارة التمثيلية كما يحلو للبعض أن يسميها ، والتي تعكس في هذا السياق مدى تعلق النفوس آنذاك بالدَّرِّ

---

[١] - لسان العرب : درر – حلب .

والحلب وما إلى ذلك مما يتعلق باللبن الذي كانت تقوم عليه الحياة ، فعمرو رضي الله عنه لم يَرَ في فيضان النيل زيادة في الماء ، وإنما رأى فيه دراً للبنٍ خالصٍ سائغٍ شرابُه ، وهذا يعكس مدى إدراكه ــ رضي الله عنه ــ لقيمة ماء النيل بالنسبة لأرض مصر وأهلها ، بل وإدراكه لقيمة هذا الكم الهائل من الماء العذب الذي يجري بصورة لم يكن قد رآها من قبل .

ومعنى : " يَكْثُرُ فيهِ ذُبَابُه " يتجمع فيه نَحْلُهُ ، والضمير في " فيه " يعود على " أوان " ، وفي " ذُبَابُه " يعود على النيل ، والذُّبابُ : النحل[١] ، وأضافه إلى الضمير العائد إلى النيل كما أضافوه إلى الغيث في قولهم : " ذُبَابُ غَيْثٍ " ؛ حيث قد ورد في الأثر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى عامله بالطائف في خلايا العسل وحمايتها : " إِنْ أَدَّ إِلَيْكَ مَا كَانَ يُؤَدِّى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم– مِنْ عُشُورِ نَحْلِهِ فَاحْمِ لَهُ سَلَبَةَ ، وإِلاَّ فَإِنَّمَا هُوَ ذُبَابُ غَيْثٍ يَأْكُلُهُ مَنْ شَاءَ "[٢] ، وقد فسر ابن الأثير – رحمه الله – هذا الأثر بقوله : " يُريد بالذُّباب النَّحلَ ، وإضافَتُه إلى الغَيْثِ على مَعْنَى أنه يكونُ مع المَطر حيثُ كان ؛ ولأنَّه يَعيش بأكْل ما يُنْبتُه الغَيثُ " [٣] .

وإنما ذكر عمرو رضي الله عنه النَّحْل بلفظ " ذُبَابُه " ؛ ليحدث مع لفظ " حِلابُه " في ختام القرينة السابقة سجعاً متوازياً يحافظ به على توازن الإيقاع الصوتي لهذه الفقرة .

---

[١] - السابق : ذبب .

[٢] - راجع الأثر في : السنن الكبرى للبيهقي ٤ / ١٢٦ برقم : ٧٧٠٩ــ نشر : دائرة المعارف النظامية بالهند ــ ط / أولى ١٣٤٤ هـ ، وسَلْبَةَ : اسم وادٍ .

[٣] – النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأسير : " باب الذال مع الباء " ــ تحقيق : طاهر أحمد الزاوي ــ محمود محمد الطناحي ــ ط : دار الكتب العلمية ١٣٩٩ هـ ــ ١٩٧٩ م .

وفي الجملة التالية : " **تُمِدُّهُ عُيُونُ الأَرْضِ ويَنَابِيعُهَا** " يصف عمرو رضي الله عنه زيادة النيل وصفاً مبيناً كاشفاً للكيفية التي يزيد بها ، معتمداً في هذا الوصف على الجملة الفعلية المبنية على صيغة المضارعة ، والتي من شأنها ــ كما أشرت ــ نقل الصورة إلى أذهان المخاطبين ، ويسند في هذه الجملة المدد إلى عيون الأرض وينابيعها ، بطريق المجاز العقلي ، بعلاقة السببية ؛ مبالغة في إظهار قوة السبب وشدة تأثيره في إحداث الفعل ، وكأن هذه العيون والينابيع هي التي تحدث المدد ، وليست مجرد أسباب سخرها الله تعالى تجري بقدرته لتحقيق ذلك المدد .

وقد أدت إضافة العيون إلى الأرض في هذا السياق دورًا مهماً في إفادة المبالغة والتخييل في جعل جميع عيون الأرض مددًا للنيل في ذلك الوقت ، وإلا لم تكن هذه الإضافة بلازمة ؛ إذ كان بإمكانه أن يقول : تمده العيون والينابيع .

والعيون والينابيع بمعنى واحد ، ففي لسان العرب : نَبَعَ ونَبِعَ ونَبُعَ الماءُ يَنْبِعُ ويَنْبَعُ ويَنْبُعُ نَبْعَاً ونُبُوعَاً : تَفَجَّرَ ، وقيل : خرج من العين ؛ ولذلك سميت العين ينبوعاً [١] ، وعلى هذا يكون عطف الينابيع على العيون في قوله : " تُمِدُّهُ عُيُونُ الأَرْضِ ويَنَابِيعُهَا " من باب عطف المرادف على المرادف لتوكيد المعنى ، وفيه خداع للمخاطب وإيهام له بتعدد مصادر المدد ؛ لأن العطف بالواو ــ كما هو معلوم ــ يفيد المغايرة ، وكأن المدد يأتي النيل في ذلك الوقت من مصادر متعددة ، وليس من عيون الأرض أو ينابيعها فقط .

وفي قوله : " **حَتَّى إِذَا مَا اصْلَخَمَّ عَجَاجُه ، وَتَعَظَّمَتْ أَمْوَاجُه ، فَاضَ عَلَى جَانِبَيهِ** " يصف عمرو رضي الله عنه فيضان النيل بعد زيادته التي وصفها في الجمل السابقة ، ويبدأ كلامه بـ " حتى " الدالة على انتهاء غاية الزيادة قبلها ؛ ليأتي بعدها بكلام متصل بهذه الزيادة ، ويبدأ هذا الكلام بـ " إذا " الشرطية الدالة على تحقق وقوع الشرط بعدها ، ثم يأتي بـ " ما " الزائدة لتأكيد الكلام وتقويته ،

---

[١] - لسان العرب : نبع .

ثم يأتي بعد ذلك بفعل الشرط " اصْلَخَمَّ " على صيغة المضي ، تناسباً مع تحقق الوقوع والحدوث ، ومعناه : ارتفع واشتد ،يقال : اصْلَخَمَّ اصْلِخْماماً : اصْطَخَمَّ وغَضِبَ ، وبعيرٌ صِلْخامٌ بالكسر : طويلٌ أو صُلْبٌ شديدٌ [١] ، ثم يسند هذا الفعل إلى العَجَّاج بمعنى الصوت ، يقال : نَهْرٌ عَجَّاجٌ : إذا سمع لمائه صوت [٢] ، وبناء هذه الجملة على تلك الكيفية من شدة الجرس ملائم لشدة خرير الماء أثناء تلك الزيادة ، وإن كان الفعل " اصلخم " يبدو غريباً لنا الآن .

وجملة : " تَعَظَّمَتْ أَمْوَاجُه " معطوفة على الجملة قبلها بالواو لما بينهما من التوسط بين الكمالين ؛ إذ الجملتان متحدتان في الخبرية ، و بينهما تناسب في الفعلية وصيغة المضي ، والمسند إليه في الجملة الثانية جزء من المسند إليه في الجملة الأولى ، ومجئ المسند : " تَعَظَّمتْ " على صيغة التضعيف للمبالغة في وصف الأمواج بالعتو والارتفاع .

ثم تأتي جملة الجواب : " فَاضَ عَلَى جَانِبَيهِ " ؛ لتصور غاية المراد بالأوصاف السابقة ، وهو الفيضان ، والتعبير هنا بالفيضان ، وليس بالسيلان ، أو الجري ، أو شئ آخر ، وهو تعبير دقيق ، مناسب لتدفق مياه النيل على جانبيه بكثرة ، وغزارة ، واندفاع ؛ إذ لا يقال : فاض إلا إذا سال بكثرة ، ومنه الإفاضة من عرفة ، وهو أن يندفعوا منها بكثرة ، أما سال فلا يفيد الكثرة ، وإنما يفيد الجريان فقط [٣] .

والمتأمل في هذه الفقرة يجد أن ترتيب الجمل الواصفة لزيادة النيل حتى فيضانه جاء في غاية الدقة والإتقان ، فزيادة الماء بمدد العيون والينابيع أولاً ،

---

[١] - القاموس المحيط ولسان العرب : صلخم .

[٢] - لسان العرب : عجج .

[٣] - راجع : الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري صـ ٣٢١ تحقيق / عماد زكي الباروي – نشر : المكتبة التوفيقية بالقاهرة .

ثم يصحب هذه الزيادةَ جريانٌ بانحدارٍ يُحدِث صوتاً عالياً مرتفعاً ، ويصحب ذلك أمواج عالية هادرة تعلو وتتعاظم بسبب شدة الانحدار وعصف الرياح ، فيؤدي ذلك إلى زيادة فيضان المياه على جانبي النهر .

وبعد وصف الفيضان ينتقل عمرو رضي الله عنه إلى وصف كيفية تنقل أهل مصر أثناء هذا الفيضان من قرية إلى أخرى ، فيقول : " **فَلَمْ يُمْكِنِ التَّخَلُّصُ مِنَ القُرَى بَعْضِهَا إلى بَعْضٍ إلا فِي صِغَارِ المَرَاكِب ، وَخِفَافِ القَوَارِب ، وَزَوَارِقَ كَأَنَّهُنَّ فِي المَخَايِلِ وُرْقُ الأَصَائِلِ** " بقصر إمكان التخلص من قرية إلى أخرى على كونه بإحدى وسائل ثلاث : صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق حسنة جميلة .

والقصر هنا من قصر الموصوف على الصفة قصراً حقيقياً مبنياً على المبالغة ؛ لأن التخلص آنذاك كان يحدث – كما يحكي لنا آباؤنا وأجدادنا – بخوض المياه من قرية إلى أخرى ، أو بصنع وسائل أخرى ، كالحزم واللفافات المتخذة من الخوص وجذوع النخل ، لكن هذه الوسائل لم تكن آمنة كما كانت الوسائل التي ذكرها سيدنا عمرو رضي الله عنه ؛ ولذلك جعلها كالعدم بالنسبة للوسائل المذكورة ، فبنى كلامه على القصر ؛ ليثبت التخلص من قرية إلى أخرى لهذه الوسائل وينفيه عن غيرها ، والقصر هنا بالنفي والاستثناء ؛ تنزيلاً للمعنى الذي لا ينكره أي مخاطب ولا يشك فيه منزلة المنكر المشكوك فيه ، زيادة في التأكيد والتقرير .

وبالتأمل نجد أن عمراً ــ رضي الله عنه ــ قد بدأ كلامه بتسليط النفي على إمكان التخلص ، وليس على التخلص نفسه ، ونفي إمكان الفعل أبلغ من نفي الفعل ؛ لأن فيه نفيًا للفعل بطريق الكناية ، والكناية ــ كما يقولون ــ أبلغ من التصريح .

ثم نجده قد عبر بالقرى مراداً بها الأماكن أولاً ، ثم أعاد عليها الضمير في " بعضها إلى بعض " مراداً به أهلها ، وهذا ما يسمى بالاستخدام [١] .

وعطف " خفاف القوارب " ، وكذلك " زوارق " على " صغار المراكب " للاهتمام والعناية ؛ إذ القوارب والزوارق يدخلان في جنس المراكب ؛ لأن المراكب اسم لكل ما يركب في البر والبحر ، والقوارب : السفن الصغيرة التي تكون كالجنائب للسفن الكبيرة ، يستخفها أصحاب هذه السفن لقضاء حوائجهم ، والزوارق : القوارب الصغيرة [٢] ، فعطف القوارب والزوارق على المراكب من باب ذكر الخاص بعد العام ، وهو نوع من أنواع الإطناب ، يأتي للاهتمام والعناية بالمعطوف ، تنزيلاً لمخالفته للمعطوف عليه في الوصف منزلة مخالفته له في الذات [٣] .

ولا يخفى أن هذا الترتيب الذي ذكره عمرو – رضي الله عنه – ملائم لحال الناس في الانتقال من مكان إلى مكان ، وملائم كذلك لتفاوت هذه الوسائل في السرعة ، فإن كان الانتقال بالأمتعة الثقيلة والعدد الكثير من الركاب ، فبصغار المراكب ، وهي أقل سرعة من القوارب ، وإن كان ببعض الأمتعة مع قلة العدد ، فبخفاف القوارب ، وهي أقل سرعة من الزوارق ، وإن كان بلا أمتعة مع قلة العدد ، فبالزوارق التي هي أسرع هذه الوسائل ؛ ولذلك كان تشبيهها بورق الأصائل..... وهكذا جاء تريب هذه الوسائل مراعىً فيه حال الناس في تنقلهم وحال هذه الوسائل من السرعة ، وكان التدرج حسب الحال والحاجة من الأكبر الأثقل ، إلى الأصغر الأخف والأسرع .

---

[١] – الاستخدام هو : أن يراد بلفظ له معنيان أحدهما ثم بضميره معناه الآخر ، أو يراد بأحد ضميريه أحدهما وبالآخر الآخر . الإيضاح : ٦ / ٤٠ .

[٢] - لسان العرب : ركب – قرب – زرق .

[٣] - راجع في ذكر العام بعد الخاص ، وذكر الخاص بعد العام الإيضاح : ٣ / ٢٠٠ . وشروح التلخيص ٣ / ٢١٦ .

ومن بلاغة عمرو ــ رضي الله عنه ــ وقدرته على التعبير عما يريد بطرق مختلفة ، أنه لما ذكر " صغار ، وخفاف " مع " المراكب ، والقوارب " ، وكان هذان اللفظان أشبهَ بالوصف لما أضيفا إليه ؛ لأنهما جمع لـ : " أصغر ، وأخف " المجردين من الدلالة على التفضيل ، ولو أخرهما فقال : إلا في المراكب الصغيرة ، والقوارب الخفيفة ، لكانا وصفاً صريحاً ، أقول لما فعل عمرو – رضي الله عنه – هذا أراد أن يصف الزوارق وصفاً صريحاً ببناء مختلف ، فأتى بها منكرة ، ووصفها بجملة التشبيه ، فقال : " وَزَوَارِقَ كَأَنَّهُنَّ فِي المَخَايِلِ وُرْقُ الأَصَائِلِ " ؛ ليعادل بين الوسائل الثلاثة في الأوصاف ، وإنما سلك هنا طريق التشبيه ؛ لأن الزوارق أجمل وأبهر صورة من المراكب والقوارب ؛ وذلك لصغرها ودقة صنعها ، والتشبيه هو الأسلوب الأمثل والأقدر على نقل إعجاب وانبهار المتكلم بصورة هذه الزوارق الصغيرة ؛ ولذلك كان تنكير المشبه للدلالة على التعظيم والتفخيم .

والمخايل : جمع : مَخِيلَةٍ ، من خَالَ الشئ يَخَالُهُ خَيْلاً وخِيْلَةً وخَيْلَةً وخَالاً وخِيَلاً وخَيَلاناً ومَخَالَةً ومَخِيلَةً وخَيْلُولَةً : إذا ظنَّه وتَفَرَّسه [١] ، وإنما اعترض رضي الله عنه بشبه الجملة : " في المخايل " بين اسم كأن وخبرها ــ أو بين طرفي التشبيه ــ لأن المنقول إليه هذا الوصف ، وهو عمر رضي الله عنه ، لا يمكن أن يدركه إلا بطريق التخيل ؛ أو لأن كل من يرى هذه الزوارق يظنها في مَخِيلَتِهِ وُرْقَ الحمائمِ .

ووُرْقٌ : جمع وَرْقَاءَ ، وهي الحمامة التي في لونها بياض إلى سواد يشبه لون الرماد ، والأصائل : جمع الأصيل ، والأصيل العشيّ [٢] .

وعلى هذا فمعنى عبارة عمرو رضي الله عنه : " كَأَنَّهُنَّ فِي المَخَايِلِ وُرْقُ الأَصَائِلِ " : كأنهن في الظَّنِّ والتَّفَرُّسِ حمائم ورقاء تطير وقت العشي ، ولله دَرُّهُ

---

[١] - لسان العرب : خيل .

[٢] - السابق : ورق ــ أصل .

من وَصَّافَةٍ لمَّاحةٍ سيدنا عمرو في هذه العبارة ، بل وفي الرسالة كلها ، فالزوارق صغيرة ، سريعة ، مطلية بالقار الأسود الذي يميل إلى البياض من أسفل ، وجوانبها وبواطنها مطلية بلون مغاير ، ربما كان أحمر أشبه بالشفق عند غروب الشمس ، وهذه الأوصاف وجدها ــ رضي الله عنه ــ في الحمام الرمادي ، إذا طار وقت الأصيل عائدًا ، فرحاً ، مسرعاً ، إلى وكناته ، فانعكس عليه ضوء الشمس الذهبي ، فغدا جامعاً بين اللونين : الرمادي والأحمر ؛ ولهذا جعل رضي الله عنه " الورق " مشبهاً به ، وقيَّده بإضافته للأصيل ، وجمع الأصيل على أصائل ؛ ليتناسب مع جمع الورق ، والمخايل ، والزوارق ، قبله ، وأتى بـ " كأن " أداة للتشبيه ؛ ليُحكم تقوية المشابهة بين الزوارق وورق الأصائل ، وحذف وجه الشبه ـــ وهو هيئة أجسام صغيرة جمعت بين البياض والسواد والحمرة ـــ لتذهب كلُّ مَخِيلَةٍ في تصوره كلَّ مذهب .

والتشبيه هنا مرسل ، مجمل ، مفرد الطرفين ، مركب الوجه ، حسي الطرفين والوجه ، تمثيلي عند الجمهور والخطيب ، غير تمثيلي عند عبد القاهر و السكاكي [١] ، منتزع من البيئة المحيطة ، ناقل لصورة المشبه في أجمل وأبهى صورة .

وقبل أن أترك هذه الفقرة أشير إلى ذلك السجع المتوازي بين : " صغار المراكب " و " خفاف القوارب " ، والموازنة بين الفقرتين الأولى والثانية : " صِغَارِ المَرَاكِب " و " خِفَافِ القَوَارِب " مع الفقرة الثالثة : " زَوَارِقَ كَأَنَّهُنَّ

---

[١] ـ تمثيلي عند الجمهور والخطيب ؛ لأنهم يشترطون في التشبيه التمثيلي أن يكون وجه الشبه فيه مركبًا ، سواء كان مركبًا حسيًا أو كان مركبًا عقليًا ، وغير تمثيلي عند عبد القاهر و السكاكي ؛ لأن عبد القاهر يشترط في التشبيه التمثيلي أن يكون وجه الشبه فيه عقليًا غير غرزي ، سواء كان مركبًا أو كان مفردًا ، كقولهم : كلام كالعسل في الحلاوة ، أما السكاكي فيشترط في التشبيه التمثيلي أن يكون وجه الشبه فيه مركبًا عقليًا ، مثل قوله تعالى : مثلهم كمثل الذي استوقد نارا " . وراجع : أسرار البلاغة صـ ٩٠، والإيضاح ٤ / ٩٠ ، ومفتاح العلوم صـ ١٥٣.

فِي المَخَايِلِ وُرْقُ الأَصَائِلِ " [١] ، واللذان منحا الفقرة جرساً موسيقياً رائعاً بفضل اتفاق " صغار " و "خفاف " في الوزن ، واتفاق الفاصلتين : " مراكب " و" قوارب " في الوزن والتقفية ، و اتفاقهما مع الفاصلة الثالثة : " الأَصَائِلِ " في الوزن فقط ، وهذا كله يمنح الكلام ــ كما يقول ابن الأثير رحمه الله ــ طُلاوة ، ورونقاً ، بسبب الاعتدال الذي فيه ، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء ، وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة ، وقعت من النفس موقع الاستحسان [٢] .

وبعد هذه الفقرة التي صورت كيفية زيادة النيل وفيضانه ، وتنقل أهل مصر في ذلك الفيضان بين قراها ، ينتقل عمرو ــ رضي الله عنه ــ إلى وصف انحسار النيل وعودته إلى ما كان عليه مرة أخرى ، فيقول : " **فَإِذَا تَكَامَلَ فِي زِيَادَتِه ، نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ كَأَوَّلِ مَا بَدَأَ فِي جِرْيَتِه ، وَطَمَا فِي دِرَّتِه** " .

ويبدأ هذه الفقرة بأسلوب الشرط ، والشرط هنا بـ " إذا " ؛ لأن التكامل في الزيادة واقع لا محالة ، وكذلك التراجع والنكوص على العقبين ، والتعبير بصيغة المضي في الشرط " تَكَامَلَ " مناسب لتحقق الشرط المدلول عليه بالأداة ، وصيغة التفاعل توحي ببلوغ الزيادة إلى أقصى غايات الكمال ، وإن كان يؤخذ على عمرو – رضي الله عنه – هنا الإتيان بالفاء والشرط بعدها ؛ لأن الفاء تفيد التعقيب ، وتراجع النيل إلى ما كان عليه لم يكن يحدث بعد اكتمال الزيادة مباشرة ، وإنما كان يحدث بعد اكتمال الزيادة بفترة زمنية طويلة لا تقل عن ثلاثة أشهر، نعم قد تأتي الفاء فيما تراخى من الأحداث كقولهم : تَزَوَّجَ فلانٌ فَوُلِدَ لَـهُ ، إذا لم يكن بينهما إلا مدة الحمل ، وإن كانت متطاولة ، وقولك : دخلت البصرة فبغداد ، إذا لم تقم في

---

[١]- الموازنة : أن تتساوى الفاصلتان في الوزن دون التقفية ، مع اختلاف ألفاظ القرينتين أو أكثرها في الوزن .

[٢]- راجع : المثل السائر ١/ ٢٧٢ــ تحقيق / محمد محي الدين عبد الحميد ــ نشر : المكتبة العصرية ــ بيروت ــ ١٩٩٥م .

البصرة ولا بين البلدين [١] ؛ وذلك لأن الأحداث هنا معلومة للجميع بقدرها ومدتها ، أما انحسار النيل بعد فيضانه ، فليس معلوماً إلا لأهل مصر ، وصياغة عمروٍ رضي الله عنه توحي بأن الانحسار يعقب التكامل في الزيادة مباشرة ؛ لذا فإني أرى أنه لو كان قد حذف الفاء والجملة بعدها ، وبدأ كلامه بـ " ثم " ، فقال : ثم إذا نكص على عقبيه ... خرجت أهل ملة محقورة ... لكان أبلغ وأوجز .

وأشير إلى أن قوله : " نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ " مستعار للرجوع إلى حيث كان ، يقال : نَكَصَ ، أي : رَجَعَ القَهْقَرَى ، ويقال : نكص على عقبيه : إذا رجع من حيث جاء ، ولا يقال ذلك إلا في الرجوع عن الخير خاصةً ، وربما قيل في الشرّ ، و نَكَصَ الرجلُ عن الأمر نَكْصاً ونُكوصاً : إذا تكأكأ عنه ، و نكص : رجع بلغة سُلَيم ، ومصدره النكوص [٢] .

وهذه العبارة مقتبسة من قوله تعالى : (فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ) [٣] ، ثم استخدمت في جانب النيل بطريق الاستعارة التمثيلية ، حيث شبهت حال النيل في نقصان مياهه وتراجعها شيئاً فشيئاً حتى تستقر في مجراه كما كانت ، بحال من يتراجع إلى الوراء على عقبيه خطوة خطوة ، ثم حذفت الحالة الأولى واستعيرت لها الحالة الثانية ؛ لأنها أكثر إلفاً للمخاطب منها .

---

[١] - راجع : مغني اللبيب لابن هشام ١/ ١٨٤ـ تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد ـ ط : دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١ م .

[٢] - راجع : جمهرة اللغة ، ولسان العرب : نكص ، و معاني القرآن للنحاس ٣ / ١٦٣ـ تحقيق / محمد علي الصابون ي ـ نشر : جامعة أم القرى بمكة المكرم ـ ط / أولى ١٤٠٩ هـ ، و التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ـ نشر : دار سحنون ـ تونس ١٩٩٧.

[٣] - الأنفال : ٤٨ .

والاستعارة هنا مناسبة للاستعارات قبلها ، وكأن النيل قد صار بهذه الاستعارات كائناً حياً يَدِرُّ ، ويُحْلَبُ ، ويرجع على عقبيه .

ثم لما كان المراد بالنكوص على العقبين النقصان والتراجع والعودة إلى ما كان ، أكد عمرو ــ رضي الله عنه ــ هذا المعنى بالتشبيه : " كَأَوَّلِ مَا بَدَأَ فِي جِرْيَتِه " ، وجِريته ــ بكسر الجيم ــ اسم هيئة من جرى ، و " ما " مصدرية مؤولة مع الفعل بعدها بالمصدر، والتقدير : كأول بدئه في جِريته ، أي : كأول أحواله قبل أن يبدأ في الزيادة ، وكان بإمكانه ــ رضي الله عنه ــ أن يقول : كما بدأ في جِريته ، بحذف كلمة " أول " ، لكنه عدل عن الحذف إلى الذكر للتأكيد على أنه عاد إلى أول نقطة انطلق منها للزيادة ، والتشبيه هنا ، مرسل ، مجمل ، حسي الطرفين والوجه ، مبين لمقدار حال المشبه .

وجملة : " طَمَا فِي دِرَّتِه " معطوفة على جملة : " بَدَأَ فِي جِرْيَتِه " ، والعطف هنا بالواو للتوسط بين الكمالين ، حيث اتفقت الجملتان في الخبرية ، واتحدتا في الفعلية ، وصيغة المضي ، وفي المسند إليه .

وطَمَا : زادَ وعَلا ، يقال : طمَا الماءُ يَطْمو طُمُوّاً ، ويَطْمِي طمِيًّا : إذا ارتفع وعلا وملأ النهر ، فهو طامٍ ، وكذلك إذا امتلأ البحر أوالنهر أو البئر[١] ، ودِرَّتِه : اسم هيئة من دَرَّ ، مستعار للزيادة بطريق الاستعارة التصريحية التبعية ، والأسلوب شبيه بالأسلوب السابق : " له أوانٌ يَدِرُّ حِلابُه " .

وبين الجمل الثلاث : " فَإِذَا تَكَامَلَ فِي زِيَادَتِه " ، و " نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ كَأَوَّلِ مَا بَدَأَ فِي جِرْيَتِه " ، و" وَطمَا فِي دِرَّتِه " سجع مُطَرَّفٌ [٢] ، أكسب هذه الفقرة من الموسيقى ما جعلها أكثر جذباً للانتباه ، ولفتاً للأسماع ، وإن كان السجع فيها

---

[١]- لسان العرب : طما .

[٢] - السجع المُطَرَّفُ هو : السجع الذي اتفقت فاصلتاه في الروي ، واختلفتا في الوزن ، وسمي مُطَرَّفاً لأنه خارج في التوغل في الحسن إلى الطرف .

لا يرقى إلى السجع الحسن الذي تتساوى فيه قرائنه ، أو تطول قرينته الثانية أو الأخيرة عن أختيها ، وإنما بدأه عمرو رضي الله عنه بقرينة متوسطة ، ثم أطال ، ثم أقصر ، فجاء سجعه من النوع الردئ ؛ لأنه لا يحسن – كما قالوا – أن تلي قرينةً قرينةُ أقصرُ منها كثيراً ، فتكون كالشئ المبتور ، ويبقى السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها [١] .

وصف زروعها واختلاف هيئاتها
في فصول السنة

وبعد أن وصف عمرو ــ رضي الله عنه ــ فيضان النيل وانحساره ، انتقل إلى وصف كيفية زراعة الوادي بعد انحسار الماء وجفاف قشرة الأرض ، ثم أشار إلى استبداد الرومان وأخذهم ثمار هذه الزروع عنوة وقهرًا ، ثم وصف هيئة مصر وتغيرها من صورة إلى صورة عبر فصول السنة ، فقال :

" **فَعِنْدَ ذَلكَ تَخْرُجُ أَهْلُ مِلَّةٍ مَحْقُورَة ، وَذِمَّةٍ مَخْفُورَة ، يَحْرُثُونَ بُطُونَ الأَرْض ، وَيَبْذُرُونَ بِهَا الحَبّ ، يَرْجُونَ بذلكَ النَّمَاءَ مِنَ الرَّبّ ؛ لِغَيْرِهِمْ مَا سَعَوا مِنْ كَدِّهِمْ ، فَنَالَهُ مِنْهُمْ بِغَيرِ جِدِّهِمْ ؛ فَإِذَا أَحْدَقَ الزَّرْعُ وَأَشْرَق ، سَقَاه النَّدَى ، وَغَذَاهُ مِنْ تَحْتِهِ الثَّرَى ؛ فَبَيْنَمَا مِصْرُ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ لُؤْلُؤَةٌ بَيْضَاء ، إذا هِيَ عَنْبَرَةٌ سَوْدَاء ، فَإِذا هِيَ زُمُرُّدَةٌ خَضْرَاء ، فإذا هِي دِيبَاجَةٌ رَقْشَاء ، فَتَبَارَكَ اللهُ الخَالِقُ لِمَا يَشَاء** " .

ويبدأ هذه الفقرة بفاء التعقيب : " **فَعِنْدَ ذَلكَ تَخْرُجُ أَهْلُ مِلَّةٍ مَحْقُورَة ، وَذِمَّةٍ مَخْفُورَة** " ؛ ليعطف بها ما بعدها على ما قبلها بوجه يفيد الترتيب والسرعة ، ويوحي بأن خروج أهل هذه الملة لحرث الأرض يكون عقب تراجع مياه النيل إلى ما كانت عليه بلا مهلة ، وهذا غير مطابق للواقع ؛ إذ لا بد من الانتظار حتى تجف قشرة

---

[١] – راجع الإيضاح ٦/ ١٠٨ ، وشروح التلخيص ٤/ ٤٥٠ ، مفتاح تلخيص المفتاح للخلخالي صـ ٧٢٠ تحقيق د/ هاشم محمد هاشم ، والمثل السائر ١ / ٢٣٥، والقرينة : قطعة من الكلام جعلت مزاوجة لأخرى .

الأرض ، وتستطيع الدواب المستخدمة في الحرث السير عليها ، وبهذا يكون استخدام الفاء هنا غير مطابق لمقتضى الحال ، وإنما المطابق له هو " ثم " التي تفيد التراخي ، فكان عليه أن يقول : ثم تخرج أهل ملة محقورة ، وإن كنت ألمح في استخدام الفاء إشارة إلى تلهف أهل مصر إلى زراعة الوادي فور انحسار مياه الفيضان ، وكأنهم لا يحتملون الانتظار إلى أن تجف قشرة الأرض .

والمشار إليه بـ " ذلك " في هذه الفقرة هو نكوص النيل وتراجعه إلى ما كان عليه ، وهذا قريب الذكر ، وإذا كان الأمر كذلك ، فالإشارة إليه بما يشار به للبعيد لتعظيمه وتعظيم ما يترتب عليه من الحرث والزرع ، والتعبير بصيغة المضارعة : " تخرج " لاستحضار الصورة والدلالة على تكرار الحدث وتجدده كل عام ، وأنث الفعل هنا لأن الفاعل اسم جمع ، وإذا كان الأمر كذلك جاز التذكير والتأنيث على حد السواء ، ولكنه لو ذكَّر مراعاة للفظ " أهل " لكان أفضل .

والخروج هنا يكون من القرى والمرتفعات التي أحاطتها مياه الفيضان إلى السهول والأودية ، واللفظ يدل على انتشار هؤلاء القوم من محبسهم الذي اضطرهم إليه الفيضان إلى ربوع هذه الأرض للعمل والكدح بعد الراحة والاستكانة الجبرية .

ونكَّر " ملة " و " ذمة " للتحقير ، وأكد هذه الدلالة في الجملة الأولى بالوصف : " محقورة " ، والذي جاء على صيغة اسم المفعول للدلالة على ثبوت الوصف للموصوف ثبوتاً لا يبرح ، ومثلها في ذلك : " مخفورة " ، وهي صفة لـ " ذمة " ، ومعناها : مُنْتَهَكَةٌ ، يقال : خُفِرَتْ ذمةُ فلان خُفُوراً : إذا لم يُوفَ بها ولم تتم [١] ، وبنى الكلمتين على صيغة المفعول وحذف الفاعل ؛ للتركيز على الحدث بعيدًا عن فاعله الذي لا يتعلق به غرض بلاغي ، والصياغة تصور مدى ما كان يعانيه أهل مصر آنذاك من معاملة العدو المحتل لهم ، ونظرته إليهم .

---

[١]-لسان العرب : خفر .

وبين القرينتين : " مِلَّةٍ مَحْقُورَة " و " ذِمَّةٍ مَخْفُورَة " سجع مرصع ، منح الفقرة جرساً موسيقياً خلاباً ، يستميل الأسماع ، وينفذ إلى القلوب ، فيملؤها إشفاقاً بهؤلاء الكادحين الممتهنين [١] .

وجملة : " **يَحْرُثُونَ بُطُونَ الأَرْض** " حال من " أهل ملة " ، وصيغة المضارعة فيها مناسبة لتجدد الحدث ومزاولته شيئاً فشيئاً كل عام ، وفيها شئ من استحضار صورة هذه الملة والذمة ، وهم يكدحون .

وبطنُ كلِّ شئ جوفُه [٢] ، وجَمْعُ البطن على بطون للمبالغة في كثرة الحرث واتساع رقعة المحروث ، وإيقاع الحرث على بطون الأرض للمبالغة فيه ، وإلا فالحرث لا يتجاوز قشرة الأرض و سطحها ، وعطف جملة : " **وَيَبْذُرُونَ بِهَا الحَبّ** " على جملة : " **يَحْرُثُونَ بُطُونَ الأَرْض** " بالواو للتوسط بين الكمالين ، حيث الاتحاد في الخبرية ، وفي المسند إليه ، قائم بين الجملتين ، وكذلك التناسب في صيغة المضارعة ، وفي ترتب البذر على الحرث ؛ ولهذا تعد هذه الصورة من أحسن صور الوصل كما قرر البلاغيون [٣] ، وصيغة المضارعة فيها مناسبة لعملية البذر المتجددة المتكررة بتكرار الحدث كل عام ، وفيها نقل لصورة هؤلاء ، وهم يبذرون أنواعاً وألواناً مختلفة من الحبوب .

و" يَبْذرُونَ " على وزن " يحرثون " ، و" الحب " على وزن " الأرض " ، فبين الجملتين مماثلة زادت من جمال الإيقاع والتنغيم الصوتي لهذه الفقرة [٤] .

---

[١] - السجع المرصع هو : السجع الذي تتفق فاصلتاه وزناً وتقفية ، ويكون ما في القرينتين أو أكثره متفقاً كذلك في الوزن والتقفية . وراجع : الإيضاح ٦ / ١٠٧، و شروح التلخيص ٤ / ٤٤٧ .

[٢] - لسان العرب : بطن .

[٣] - راجع محسنات الوصل في : الإيضاح ١٤٠/٣، وشروح التلخيص ٣/ ١٠٩ .

[٤] - المماثلة : أن تتساوى الفاصلتان في الوزن دون التقفية ، مع اتفاق ألفاظ القرينتين أو أكثرها في الوزن .

وجملة : " **يَرْجُونَ بذلكَ النَّمَاءَ مِنَ الرَّبّ** " حال أخرى من " أهلُ مِلَّةٍ " ، والتعبير بالرجاء بدلاً من التمني في هذا السياق مناسب لمقتضى حال العاملين بالزراعة ؛ لأن الرجاء انتظار للخير المتوقع دون غيره ، بخلاف التمني ، فهو فعل قلبي لشيء محبوب ممكن بعيد المنال أومستحيل [١] ، وهؤلاء يحرثون الأرض ، ويبذرون الحب ، ثم ينتظرون الخير المتوقع من الرب .

وصيغة المضارعة : " يرجُون " مناسبة لتجدد الرجاء كلما تجدد الحرث والبذر ، والإشارة بـ " ذلك " لما سبق من الحرث والبذر ، وأشار إليهما بما يشار به للبعيد لتعظيمهما وتعظيم ما يُرجى منهما ، والمراد بالنماء : الإنبات ، وأصله : الزيادة ، والنمو[٢] ، فإطلاقه هنا مراداً به الإنبات مجاز مرسل بعلاقة ما سيكون ، جئ به مراعاة لرغبتهم المرجوة في سرعة نمو نبات هذا البذر وقرب حصاده .

وقوله : " من الرَّبِّ " دليل على إيمانهم وشدة توكلهم على خالقهم ، ولمَ لا ، وقد كانوا أهل ديانة سماوية ؛ إذ كان أغلبهم على النَّصرانية .

وبين" الحَبّ " و " الرَّبّ " جناس لاحق [٣] أسهم مع السجع المتوازي الذي تحقق بوقوع كل منهما فاصلة للقرينتين : " وَيَبْذُرُونَ بِهَا الحَبّ " و" يَرْجُونَ بذلكَ النَّمَاءَ مِنَ الرَّبّ " في منح الفقرة نغمة موسيقية جميلة ، وإن كان هذا السجع يأتي في مرتبة ثانية من الحسن والبلاغة لطول قرينته الثانية عن الأولى .

وجملة : " لِغَيرِهِمْ مَا سَعَوا مِنْ كَدِّهِمْ " حال ثالثة من " أهل ملة " تصور هي والجملة المعطوفة عليها بفاء التعقيب : " فَنَالَهُ مِنْهُمْ بِغَيْرِ جِدِّهِمْ " مدى الظلم الذي كان يقع على أهل هذه الطبقة من فلاحي مصر في ذلك

---

[١] - الفروق اللغوية : ٧٦ .

[٢] - لسان العرب : نما .

[٣] - الجناس اللاحق هو : الجناس الذي يختلف فيه اللفظان المتجانسان في حرفين متباعدين في المخرج .

الوقت ، بل على مصر كلها ؛ إذ كانت مصر آنذاك تحت الاحتلال الروماني ، وكان الرومان يحتقرون أهلها ، ويمتهنونهم و يستخدمونهم كآلات للزراعة ، وينهبون محاصيل أرضهم ــ خصوصًا القمح ــ إلى روما [١] .

وقد جاءت صياغة عمرو ــ رضي الله عنه ــ معبرة عن هذا بدقة بالغة ، حيث قدم الجار والمجرور : " لِغَيرِهِمْ " ــ وهو مسند ــ على المسند إليه : " مَا سَعَوا مِنْ كَدِّهِمْ " للقصر والاختصاص ، والمعنى : لغيرهم وليس لهم ما سعوا ، وأصل التركيب : ما سعوا من كدهم لغيرهم ، والقصر هنا من باب قصر الموصوف : " ما " على الصفة : " لغيرهم " قصراً إضافياً ؛ لأن المنفي عنه الانتفاع بهذا السعي معين ، وهو أهل الملة المحقورة والذمة المخفورة ، ثم هو قصر مبني على المبالغة ؛ لأن هؤلاء كانوا يأكلون من زروعهم ، ولكن كان ذلك بالقدر اليسير ، فهو كالعدم بالنسبة لما نُهب وسُلب .

و " ما " موصولة بمعنى الذي ، وتعريف المسند إليه بالموصولية أفاد تعظيم وتفخيم سعيهم المسلوب ، وفي الكلام إيجاز بالحذف ، والتقدير : سعوا إليه .

وتأمل جودة الصياغة ، وتمكن المتكلم ــ رضي الله عنه ــ من لغته ، حيث أعاد الضمير في قوله : " لِغَيْرِهِمْ مَا سَعَوا مِنْ كَدِّهِمْ ، فَنَالَهُ مِنْهُمْ بِغَيرِ جِدِّهِم " على " غير" مفردًا في " فناله " مراعاة للفظ ، وأعاده عليه مجموعاً في " جِدِّهم " مراعاة للمعنى ، وفي هذا ما فيه من تلوين ، وتنويع ، ومراعاة لما تحتمله الكلمة لفظاً ومعنىً ، والجِدُّ : الاجتهاد ، والمعنى : فانتهبوه منهم ، واستلبوه ، بغير اجتهاد وكد في زراعته .

---

[١] - راجع : عصر الخلافة الراشدة د / أكرم بن ضياء العمري صـ ٣٣٦ــ نشر : مكتبة العبيكان ، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د / جواد علي ٥ / ١١٤ــ نشر : دار الساقي ط / رابعة : ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١ م .

ولا يخفى أن بين الجملتين سجعاً متوازياً ، وبين " كَـدِّهم " و " جِـدِّهم " جناساً لاحقاً ، حقق كل منهما للفقرة نغمة موسيقية جميلة ، مع قرن الكد الكادح من هؤلاء المزارعين بالنهب الغاصب من المحتلين المعتدين ، ونقل الصورة للمتلقي بطريقة تجعله أكثرَ إشفاقاً وتعاطفاً مع أصحاب هذه الأرض .

وقوله : " **فَإِذَا أَحْدَقَ الزَّرْعُ وَأَشْرَق سَقَاه النَّدَى ، وَغَذَاهُ مِنْ تَحْتِهِ الثَّرَى** " يصور واقع هذا الزرع كما كان ، حيث كان ينمو على ليونة الأرض وقطرات الندى ، ولا يُسقى بماء حتى يُحصد .

والفاء في : " فإذا أَحْدَقَ الزَّرْعُ " تعقيبية عاطفة ، عطفت إحداق الزرع على بذر الحب ، وقد فصل بينهما بجملة : " لِغَيْرِهِمْ مَا سَعَوا مِنْ كَدِّهِمْ ، فَنَالَهُ مِنْهُمْ بِغَيرِ جِدِّهِم " ، ولا داعي لهذا الفصل ؛ إذ كان يجب عليه اقتضاءً لتسلسل الأحداث حسب الواقع الزمني أن يقول : يحرثون بطون الأرض ، ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ، فإذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، لغيرهم ما سعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جدهم ؛ لأن اكتمال الزرع وإحداقه يأتي تالياً للبذر ، واغتصاب الخراج واستلابه يأتي تالياً لاكتماله وحصاده ..... وهكذا ، وإن كان القطع والأخذ في فن آخر من القول ، ثم العطف عليه بتمام المعنى الأول ، طريقة بلاغية معروفة [١] .

والشرط بـ " إذا " ومجئ فعله : " أحدق " على صيغة الماضي مناسب لتحقق الوقوع والحدوث ، والعطف بالواو في : " وأشرق " للتوسط بين الكمالين ، ومعنى " أحدق " كبر ، واستدار ، وصار كالحديقة ، والإحداق : الإحاطة بالشيء [٢] ، ومعنى " أشرق " تَفَتَّحَ نَوْرُهُ .

---

[١] - راجع : نقد النثر لقدامة بن جعفر صـ ٧٢ ط : دار الكتب العلمية ـــ بيروت ١٤١٦ هـ ـــ ١٩٩٥ م .

[٢] - لسان العرب : حدق .

فالإشراق مستعار في هذا السياق لتفتح نَور الزرع ، والاستعارة هنا تصريحية تبعية في معنى الفعل ، وقد أضفت هذه الاستعارة على الأسلوب مبالغة في انتشار هذا النَّوْرِ على سطح الأرض المزروعة ، ومنحت الزرع حسناً ، وجمالاً ، وتلألؤاً ، وكأن نَوْرَهُ أضحى نجوماً تملأ الكون نُوراً ، وضياءً ، وبهجةً .

وقوله : " سَقَاهُ النَّدَى " جواب الشرط ، ومعلوم أن جواب الشرط متوقف حصوله على حصول الشرط ، وهذا يعني أن سقي الندى للزرع موقوف حصوله على حصول إحداق الزرع وإشراقه ، وهذا معناه أن هذا الزرع لا يحتاج إلى المياه أبداً ، وإنما يحتاج إلى القليل منها عندما يوشك على النضج، ويكفيه الندى بهذا القليل ، وهذه حقيقة كانت ملموسة في كيفية زراعة أرض الوادي بعد الفيضان حتى بناء السد .

ولا يخفى أن قوله : " سَقَاهُ النَّدَى " مستعار لبلّله الندى ، بطريق الاستعارة التصريحية التبعية في معنى الفعل ، والتي تشير إلى أن هذه القطرات القليلة التي نراها على أوراق الأشجار والزروع صباحاً تعد سقياً لهذا النبات المرتوي أصلاً بما ادخره باطن الأرض من مياه وقت الفيضان .

وعطف على جملة الجواب : " سَقَاهُ النَّدَى " جملة : " غَذَاهُ مِنْ تَحْتِهِ الثَّرَى " بالواو للتوسط بين الكمالين ؛ إذ الجملتان متفقتان في الخبرية ، ومتناسبتان في الفعلية ، وصيغة المضي ، وفي المفعول به ؛ ولهذا يعد الوصل هنا من أحسن صور الوصل .

و" غَذَاه " أي : غَذَّاه وأمده بما فيه من خصوبة ومياه تساعد على نموه ، والغِذاء ككَساء : ما به نماء الجسم وقوامه ، وفى الصِّحاح والمِصباح : ما يُغتذى به من الطعام والشراب ، يقال : غَذَاهُ ــ أي الصبي ــ باللبن غَذْوًا ــ بالفتح ــ رَبَّاهُ به ، وغَذَّاهُ تغذية : إذا أريدت المبالغة [١] .

---

[١] - راجع : تاج العروس ، ولسان العرب : " غذا " .

والمتأمل في هاتين الجملتين يجد أن هناك حذفاً في الجملة الأولى دل عليه المذكور في الجملة الثانية ، حيث دل : " مِنْ تَحْتِهِ " على حذف مقابله من الجملة الأولى ، والتقدير : سقاه من فوقه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فحذف على طريقة شبه الاحتباك [١] ، وقد صرحت رواية أخرى للرسالة بالمحذوف ، حيث جاء فيها : " يسقيه من تحته الثرى ومن فوقه الندى " [٢] ، وبهذا يكون هذا الزرع مسقيًا من تحته بالثرى ومن فوقه بالندى ، مع إمداد الثرى له بما فيه من مواد كيميائية كونية تساعد على نموه وازدهاره ، ولك أن تتخيل حلاوة طعم وجودة ثمارٍ مثل ثمارهذه الزروع التي لا تتدخل يد البشر في إنمائها بالأسمدة والمبيدات السامة كما يحدث الآن .

ولا يخفى ما للمماثلة الرائعة بين القرينتين : " سَقَاهُ النَّدَى " ، و" غَذَاهُ مِنْ تَحْتِهِ الثَّرَى " من إسهام واضح في الحفاظ على الإيقاع الصوتي الرائع ، والنغمة الموسيقية الجميلة ، التي يمتاز بها نظم هذه الرسالة .

وبعد هذا الوصف الدقيق لكيفية زراعة أرض مصر بعد الفيضان ينتقل عمرو ــ رضي الله عنه ــ إلى وصف صورة مصر خلال فصول السنة ، وتحولها من هيئة إلى هيئة ، فيقول : " **فَبَيْنَمَا مِصْرُ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ لُؤْلُؤَةٌ بَيْضَاء ، إذا هِيَ عَنْبَرَةٌ سَوْدَاء ، فَإِذا هِيَ زُمُرُّدَةٌ خَضْرَاء ، فإذا هِي دِيبَاجَةٌ رَقْشَاء ، فَتَبَارَكَ اللهُ الخَالِقُ لِمَا يَشَاء** " .

---

[١] ـ الاحتباك هو: أن يجتمع في الكلام متقابلان و يحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه ، وشبهه : أن يحذف شئ من إحدى الجملتين ويدل عليه بضده في الجملة الأخرى . وراجع : التعريفات للجرجاني صـ ٢٥ ــ تحقيق / إبراهيم الأبياري ــ ط : دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ط / أولى ١٤٠٥ هـ ، وخزانة الأدب للبغدادي ٣ / ٢٣٦ ــ تحقيق د/ محمد نبيل طريفي ــ إميل بديع يعقوب ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٩٩٨.

[٢] ـ راجع : فضائل مصر المحروسة لابن الكندي صـ ١٠.

ويبدأ بفاء الاستئناف في : " فبينما " ، وإن كان حمل الفاء على الاستئناف ضعيفاً ، إلا أنها جاءت هنا لاستئناف كلام جديد منقطع عما قبله ؛ لأنه لا يصلح حملها في هذا السياق على العطف ، ولا على الزيادة ، ولا على ربط الجواب بالشرط ؛ إذ لا يوجد ثَمَّ شرطٌ أصلاً ، وهذه هي المعاني الثلاثة للفاء كما ذكرها النحاة [١] .

و" بَيْنَمَا " أصلها : " بَيْنَ " ، ثم أشبعت الفتحة ، وزيدت الميم ، فصارت " بَيْنَمَا " [٢] ، وهي للزمان ، تدل على أن حدثاً قد تخلل حدثاً آخر ، و" إذا " بعدها للمفاجأة ، ولهما في هذا السياق وقع جليل ، وأثر بلاغي عظيم ؛ إذ دلاَّ على أن تَحَوُّلَ مصر خلال شهور العام من طور إلى طور ، وهيئة إلى هيئة ، يحدث بشئ من التداخل والسرعة ، فبينما هي لؤلؤة بيضاء ، تتحول إلى عنبرة سوداء ، فزمردة خضراء ، فديباجة رقشاء ..... وهكذا .

وقد أسهمت فاء التعقيب في : " فإذا هي " في الدلالة على وقوع هذا التداخل والتلاحق بلا مهلة ، وسدت ما بين الأحداث من فجوات يمكن لخيال المتلقي أن يجول فيها مبتعداً عن التركيز مع الكاتب أو المتكلم .

واللُّؤْلُؤَةُ : الدُّرَّةُ ، وهي بيضاء ، و العَنْبَرَةُ : قطعة الطِّيب ، وهي سوداء ، والزُّمُرُّدَةُ : قطعة من الجواهر تتخذ من أحجار كريمة خضراء [٣] .

وتأمل حرص عمرو ــ رضي الله عنه ــ على جذب انتباه المتلقي في هذه الفقرة ، حيث اعترض بين المسند إليه " مصر " والمسند " لؤلؤة " بجملة : " يا أمير المؤمنين " المشتملة على النداء اللافت باللقب المعظم لصاحبه ،

---

[١] - راجع معاني الفاء في : مغني اللبيب ١/ ١٨٣ .

[٢] - راجع : المفصل لابن يعيش ٩٩/٤ – ط : عالم الكتب بيروت ، و همع الهوامع للسيوطي ٢/ ٢٠٣– ت / عبد الحميد هنداوي ــ نشر : المكتبة التوفيقية بالقاهرة .

[٣] - راجع : لسان العرب ، و العامي الفصيح " من إصدارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة ": " لؤلؤ ــ عنبر ــ زمرد " .

تناسباً مع عظم الوصف والهيئة الموصوفة ، ثم تأتي التشبيهات الناقلة لتحول مصر من هيئة إلى هيئة ، مشتملةً على مشبهات بها معروفة بلونها دون أن توصف به ، ثم يأتي وصف كل مشبه به بلونه تأكيداً لهذا اللون ، وتقريباً لوجه الشبه المحذوف .

فقد شبه مصر باللؤلؤة ، ثم وصف اللؤلؤة بأنها " بيضاء " ، ثم شبهها بالعنبرة ، ووصف العنبرة بأنها " سوداء " .... وهكذا .

والتشبيه هنا من النوع البليغِ ، محذوفِ الأداةِ والوجهِ ؛ لتأكيد المشابهة وتوسيع دائرة الاشتراك بين الطرفين ، وإن كانت أوجه الشبه المحذوفة مدلولاً عليها – كما قلت – بأوصاف المشبه به المذكورة ، والغرض من هذه التشبيهات المتعددة بيان حال مصر من البياض وقت الفيضان ، فالسواد عقبه مباشرة ، فالاخضرار عندما يخرج نبات الأرض فيكسو سطحها سندساً وزمرداً ، فالتدبيج والترقيش عندما تتفتح أزاهير النباتات بألوان شتى .

وقد وصف بعضهم مصر بما يعد شرحًا لهذه التشبيهات ، فقال : " ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء ، فأما اللؤلؤة البيضاء ، فإن مصر في أشهر أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء فتُرَى الدنيا بيضاء ، وضِيَاعُها على روابيَ وتلالٍ مثل الكواكب قد أحاطت بها المياه من كل وجه ، فلا سبيل إلى قرية من قراها إلا في الزوارق ، وأما المسكة السوداء ، فإنها في أشهر بابة وهاتور وكيهك ينكشف الماء عن الأرض فتصيرأرضًا سوداء ، وفي هذه الأشهر تقع الزراعات ، وأما الزمردة الخضراء ، فإن في أشهر طوبة وأمشير وبرمهات يكثر نبات الأرض وربيعها فتصير خضراء كأنها زمردة ، وأما السبيكة الحمراء ، فإنه في أشهر برمودة

وبشنس وبؤونة يتورد العشب ويبلغ الزرع الحصاد فتكون كالسبيكة التي من الذهب منظرًا ومنفعة " [١] ، وسبحان من حبى هذه البلاد بتلك النعم .

ولا يخفى أن بين الألوان : " بَيْضَاء " ، و " سَوْدَاء " ، و " خَضْرَاء " ، و " رَقْشَاء " شبه تضاد ، فالجمع بينها في هذا السياق يعد مطابقةً بديعةً ، وضعت كل لون منها في مقابل صاحبه ؛ ليتضح لون هذه الأشياء الموصوفة بتلك الألوان وضوحاً كاملاً ، ولتظهر صورة مصر في كل فصل من فصول السنة في لونها المتميز عن غيره ، كما يعد الجمع بين : " لُؤْلُؤَةٌ " ، و " عَنْبَرَةٌ " ، و " زُمُرُّدَةٌ " ، و " دِيبَاجَةُ " في سياق واحد من أبرع صور التناسب ومراعاة الأشباه والنظائر ؛ لأنها تنزع جميعاً إلى وادي الحلي ، و التجميل ، والزينة ؛ ولذلك جاء نظمها أشبه بنظم حبات العقد في سلكها ، وقد زاد من جمالها وبلاغتها ختام الفواصل بألف التأنيث الممدودة مع اتحادها في الوزن ؛ لتشكل بذلك سجعاً متوازياً ، رائع النغمة ، مليح الجرس ، عذب الإيقاع ، منتظماً مع جمال الصورة ، وحسن الهيئة ، وأبلغية تشبيه مصر على مدار العام .

ويستمر جمال الإيقاع ، وروعة التنغيم ؛ ليشمل جملة التذييل : " فَتَبَارَكَ اللهُ الخَالِقُ لِمَا يَشَاء " ، والتي ختمت بما ختم به ما قبلها ؛ لتدخل بذلك في سلك هذا التنغيم الموسيقي الخلاب ، مع التعبير أصدق تعبير عما تفيض به نفس عمرو بن العاص ــ رضي الله عنه ــ من إعجاب وانبهار بما يراه – أول مرة – في مصر من مظاهر طبعية مخلوقة بمشيئة ربها دون تدخل يد البشر .

---

[١] ـ راجع : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المسمى بـ " الخطط المقريزية " لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي ١ / ٢٦ تحقيق / محمد زينهم ــ مديحة الشرقاوي ــ نشر : مكتبة مدبولي ــ القاهرة ١٩٩٨م ، وفضائل مصر لابن زولاق " نسخة خطية بمكتبة الأزهر رقم : ٦٦٩٣ تاريخ " عن كتاب : بحوث ودراسات في اللهجات العربية " من إصدارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة " ٥٩ / ١٣.

الختام والحديث عن سبب ازدهارها
واستقرار أهلها فيها

وبعد هذا الوصف الكاشف والنعت الموضح الناقل لصورة مصر ، يختتم عمرو – رضي الله عنه – رسالته ببيان سبب إصلاح هذه البلاد وتمسك أهلها بالاستقرار فيها ، وعدم الهجرة منها إلى بلاد أخرى – كما يحدث الآن – فيقول :

" **والذي يُصْلِحُ هذه البلادَ ويُنَمِّيهَا ، ويُقِرُّ قَاطِنِيهَا فِيهَا ، ألاَّ يُقْبَلَ قَولُ خَسِيسِهَا فِي رئيسِهَا ، وألاَّ يُسْتَأْدَى خَرَاجُ ثَمَرَةٍ إلاَّ فِي أَوَانِهَا ، وأَنْ يُصْرَفَ ثُلُثُ ارْتِفَاعِهَا فِي عَمَلِ جُسُورِهَا وتُرَعِهَا ، فإذا تَقَرَّرَ الحَالُ مَعَ العُمَّالِ فِي هَذِهِ الأَحْوَالِ ، تَضَاعَفَ ارْتِفَاعُ المَالِ ، واللهُ تَعَالَى يُوَفِّقُ فِي المَبْدَأ والمَآل** " .

فهو يُرجع ذلك إلى احترام مرؤوسيها لرئيسها ، وعدم القدح أو السماح لقادح بالقدح فيه ، و مقابلة الرؤساء ذلك بالأمانة ، والوفاء ، وحسن التدبير ، والعمل على ما يصلح شأن البلاد والعباد ، فلا يأخذون ضرائب الزروع من أصحابها إلا في أوانها ، بعد نضجها والانتهاء من بيعها ، وينفقون ثلث اقتصاد البلاد فيما يصلح بنية البلاد من ترع وجسور وغيرها ، وبهذا يكثر المال ، ويعم الرخاء ، وواضح أنه يتحدث هنا عن ملوك مصر من أبنائها ، وليس عن العدو الروماني المحتل الذي كان ينهب الثروات ويستعبد البشر .

ويبدأ هذا الجزء بواو الاستئناف والابتداء ؛ لينتقل من خلالها إلى كلام جديد يغاير في مضمونه ما سبق ، وهذه طريقة بليغة في بناء المعاني وصياغتها صياغة ملفتة لأذهان المخاطبين .

ثم يأتي بالمسند إليه " الذي " معرفاً بالموصولية ؛ ليشير إلى وجه بناء الخبر و تعظيمه ؛ لأن الصلة : " يُصلح " تدل على أن الخبر الذي سيأتي بعدُ سيكون حسناً جميلاً ، وقد كان كذلك ، حيث جاء معبرًا عن حالة فريدة من رقي المحكومين

وحسن تنظيم وإدارة البلاد من قِبَلِ الحكام ، وقد منحت هذه الطريقة في الوقت نفسه الخبر من التعظيم ما لا يمنحه أسلوب آخر .

وإذا كان " الذي " لا يؤتى به – كما يقول شيخ البلاغيين رحمه الله – *إلا في* جملة من الكلام قد سبق من السامع علم بها ، وأمر قد عرفه له [١] ، والخبر الذي ساقه عمرو – رضي الله عنه – هنا لم يكن قد سبق لعُمَرَ ــ رضي الله عنه ــ علم به ، ولم يكن يعرفه ؛ فإن ذكر " الذي " هنا غير مطابق لمقتضي الحال إلا بتنزيل هذا الخبر – لتحققه في أهل مصر بصورة مستقرة وواضحة – منزلة المعلوم المألوف لكل أحد ، أو لإرادة عمروــ رضي الله عنه ــ إخراجه في صورة المعلوم المألوف ، وإن كنت أرى أنه لو قال : " وما يصلح هذه البلاد وينميها ... " ، فأتى بـ " ما " مكان " الذي " ، لكان أبلغ وأنسب لفخامة الخبر الذي جاء بعده ؛ خصوصاً لو عرفنا أن التفخيم غرض أصيل من أغراض تعريف المسند إليه بـ " ما " دون غيرها من الموصولات [٢] .

ومن الدقة البالغة في اختيار الصيغ المناسبة ، والكلمات الدالة ، أن اختار عمرو ــ رضي الله عنه ــ صيغ المضارعة : " يُصلح – يُنَمِّي – يُقِرّ – يُقبل – يُستأدى – يُصرف " كعادته في هذه الرسالة للدلالة على أن هذه الأحداث هي دأب أهل مصر المتجدد الحادث فيهم جيلاً بعد جيل ، وتأمل كيف انتقى مواد الصيغ الثلاثة الأولى مما يشكل أركان نهضة البلاد : الإصلاح ، والتنمية ، والاستقرار ، وكيف بدأ بأهم ما يحقق هذه الأمور الثلاثة ، وهو : تقدير عامة الشعب لرئيسهم ، وعدم السماح لخساس الناس بالنيل منه ، وهذا يوحي بعدل الرئيس وعمله على ما يرقى بالبلاد ويحفظ لها مكانتها ، وراجع قوله : " أَلاَّ يُقْبَلَ قَولُ خَسِيسِهَا فِي رَئِيسِهَا " ؛ لتجد تسليط

---

[١] - راجع : دلائل الإعجاز صـ ٢٠٠ .

[٢] - راجع الأمثلة التي ذكرها البلاغيون لهذا الغرض في : الإيضاح ١٥/٢ ، وشروح التلخيص ٣٠٦/١ .

النفي على الفعل " يُقبل " و بناءه على صيغة المجهول مع حذف الفاعل ؛ ليدخل كل فاعل في حيز هذا النفي ، فينعدم الفاعل وينعدم الفعل من أصله ، فلا يوجد من يقبل قول خسيس في رئيس .

ثم يأتي دور الرؤساء ممثلاً في الرفق بالمرؤوسين : " وأَلاَّ يُسْتَأْدَى خَرَاجُ ثَمَرَةٍ إِلاَّ فِي أَوَانِهَا " بتسليط النفي على الفعل " يُستأدَى " ومعناه : يُطلب الأداء ، مع بنائه على صيغة المجهول على نمط ما رأينا في : " ألا يقبل " ، وللغرض ذاته الذي رأيناه هناك .

ثم يأتي بناء " ثمرة " على صيغة التنكير للدلالة على الإفراد ؛ ليكون المعنى : وألا يوجد رئيس أو حاكم يطلب من الفلاحين تأدية خراج ثمرة واحدة إلا في أوانها ، بقصر طلب تأدية خراج الثمار على كونه في أوان الحصاد ، ونفيه عن غيره من الأوقات ، قصر موصوف على صفة ، قصراً حقيقياً تحقيقيًا كما يصوره واقع حكام المحروسة آنذاك .

وبناء الفعل : " يُصرف " في قوله : " **وأَنْ يُصْرَفَ ثُلُثُ ارْتِفَاعِهَا فِي عَمَلِ جُسُورِهَا وَتُرَعِهَا** " على صيغة المجهول فيه إشارة إلى أن صرف ثلث خراج الزروع في عمل الجسور وشق الترع كان متداولاً يقوم به كل من يتولى حكم مصر في ذلك الوقت ، ويؤخذ على عمرو ــ رضي الله عنه ــ في هذا السياق تقديم الجسور على الترع ؛ لأن الترع تشق أولاً ، ثم تقام الجسور على ضفافها بالتراب الخارج منها ؛ لذلك كان ينبغي عليه أن يقدم الترع على الجسور ، فيقول : " في عمل ترعها وجسورها " ؛ لأن الترع أسبق وأهم .

وارتفاعها : زَرْعُهَا ، يقال : جاء زمن الرَّفاع والرِّفاع : إذا رُفِعَ الزَّرع ، والرَّفاع والرِّفاع : اكتناز الزرع ورفعه بعد الحصاد [١] .

---

[١] - لسان العرب : رفع .

والشرط بـــ " إذا " في : " فإذا تَقَرَّرَ الحَالُ مَعَ العُمَّالِ فِي هَذِهِ الأَحْـوَالِ تَضَـاعَفَ ارْتِفَاعُ المَالِ " ، مع مجيء فعل الشرط : " تَقَرَّرَ " على صيغة المضي ، مناسب للقطع بتقرير الحال بعد تحقق هذه الأمور .

والإشارة إلى ما سبق ذكره بما يشار به للقريب " هذه " مناسب لحالة المشار إليـه من القرب والبعد ، وإن كنت ألمح فيها ما ألمحه في الإشارة إلى الـبلاد فـي قولـه من قبل : " والذي يصلح هذه البلاد " من الدلالة على التعظيم مع التنبيه على قرب هذه البلاد وأحوال أهلها الحسنة المحمودة إلى قلبه .

وتأمل جواب الشرط " تَضَاعَفَ " ، وكيف جاء مشتقـاً مما يدل على المضاعفة ، ومبنيـاً على صيغة : " تَفَاعَلَ " الدالة على الكثرة ؛ لتصل الدلالة على تكاثر المال وبلوغه أضعافاً مضاعفة إلى مـا يعجـزعن حصـره العـد ، والمتضـاعف هنـا ارتفاع المال ، وليس المال نفسه ، وهذا فيه من الدلالة على الكثرة والزيادة ما لـيس في تسليط التضاعف على المال نفسه لو قيل : تضاعف المال ، ولا يخفى أن الارتفاع في هذه المرة بمعنى الكثرة والزيادة ، وليس بمعنى الزرع كما كان في المرة السابقة .

وجملة : " واللهُ تَعَالَى يُوَفِّقُ فِي المَبْدَأ والمَآل " جملة خبرية ، قصـد بـه إنشـاء الدعاء ، فهي مجاز مرسل مركب بعلاقة اللزوم ، أو استعارة بتشبيه غيـر الحاصـل بالحاصل تفاؤلاً وحرصاً على وقوعه ، أو كناية بـإطلاق الملـزوم وإرادة الـلازم ، وإن كان السبكي – رحمه الله – قد منع حمل مثله على الكناية لوجوب كونه خبـراً لفظاً ومعنىً إذا قيل بذلك مع أنه إنشاء بصيغة الخبر [١] ، والجملة وقعت موقع التذييل غير الجاري مجرى المثل مما قبلها ، وجاءت كأحسن ما يكون من صور الانتهـاءات والخواتيم ؛ إذ عندها ينقطع انتظار القارئ والسامع .

---

[١] – راجـع فـي وقـوع الخبـر موقـع الإنشـاء : الإيضـاح ٩٢/٣ ، وعـروس الأفـراح "ضمن شروح التلخيص ٢/ ٣٣٨ " .

وتأمل تشابك صور المحسنات في هذه الفقرة ، فبين " ارتفاعها وارتفاع " جناس تام مماثل [١] ؛ لأن الأول بمعنى الزرع ، والثاني بمعنى الزيادة ، وبين : " الحال ، والمال " جناس لاحق ، وبين : " العمال والمال " جناس ناقص ، وبين " المال والمآل " جناس ناقص كذلك ، بالإضافة إلى ما بين " ينميها وقاطنيها وفيها ، وخسيسها ورئيسها ، وارتفاعها وترعها ، والحال والعمال والأحوال والمال والمآل " ما سماه أستاذنا د / محمد محمد أبو موسى بالجناس الصغير أو الجناس في مرحلة المهد ، والذي يأتي في مرتبة تالية للجناس الكبير المكتمل ، أو الجناس الاصطلاحي ، من حيث الإيقاع والتنغيم الموسيقي ، وبين : " والذي يُصْلِحُ هذه البِلادَ ويُنَمِّيهَا " و " يُقِرُّ قَاطِنِيهَا فِيهَا " سجعٌ مُطَرَّفٌ " ، وبين : " فإذا تَقَرَّرَ الحَالُ مَعَ العُمَّالِ فِي هَذِهِ الأَحْوَالِ " ، و " تَضَاعَفَ ارْتِفَاعُ المَالِ " ، و" واللهُ تَعَالَى يُوَفِّقُ فِي المَبْدَأ والمَآل " ، سجع مُطرّف كذلك ، والجمع بين الجسور والترع من مراعاة النظير ، وأخيراً تختتم الرسالة بالطباق بين : " المبدأ والمآل " ، وكل هذه المحسنات قاد إليها المعنى واستدعاها ، فجاءت سهلة ، سمحة ، لا تكلف فيها ولا صنعة ، فوقعت من النظم موقعًا حسناً حميدًا ، حتى إننا نكاد لا نشعر بوجودها [٢] .

---

[١] - الجناس التام المماثل هو : الجناس الذي يتفق فيه اللفظان في أنواع الحروف ، وأعدادها ، وهيئاتها ، وترتيبها ، ويكونان اسمين أو فعلين أو حرفين ، أي يتفقان في نوع الكلمة . وراجعه في : الإيضاح ٦/ ٩٠ ، وشروح التلخيص ٤/ ٤١٣ .

[٢] - راجع في السجع المستحسن : نقد النثر صـ ١٠٧، الصناعتين لأبي هلال العسكري صـ ١٧٦ تحقيق د / مفيد قميحة ط : دار الكتب العلمية ـ ط / ثانية ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤ م ، أسرار البلاغة للشيخ / عبد القاهر الجرجاني صـ ١٤ تحقيق الشيخ / محمود شاكر ط : دار المدني بجدة ط / أولى ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١م ، المثل السائر لضياء الدين بن الأثير١ / ١٩٧ تحقيق الشيخ / كامل محمد عويضة ـ ط : دار الكتب ط / أولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م ، تحرير التحبير لابن أبي الإصبع صـ ٨٦ تحقيق د/ حفني محمد شرف ـ ط : المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ـ ١٣٨٣ هـ .

الخاتمـــــــــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آلـه وصحبه وذريته والتابعين ، ومن اهتدى بهديه ، واتبع سنته ، وسار على دربه ، إلـى يـوم الدين .

وبعـــــــــد

فقد وقفت – فيما مضى – على رسالة صحابي رسول الله صلى الله عليه وسلم عمـرو بن العاص رضي الله عنه لخليفة رسول الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يصف له فيها مصر بعد أن منَّ الله على المسلمين بفتحها ودخول أهلها في دينه أفواجاً

وقد كانت هذه الرسالة ــ كما أسلفت ــ جيدة ، موجزة ، بليغة ... لم تتـرك ــ علـى وجازتها ــ في مصر شيئاً إلا وقد وقفت عليه ووصفته بدقة وإحكام .

وقد استنتجت من خلال تحليلي لهذه الرسالة ما يلي :

أولاً : جاءت ألفاظ الرسالة خالية من الأمور التي تخل بفصاحة الكلام جملاً وأفـراداً ، كمـا جاءت تراكيبها مؤلفة تأليفاً مطابقاً لمقتضى الحال ، إلا ما وقفت عليه أثنـاء التحليـل مـن استخدام بعض الألفاظ التي تبدو لنا غريبة الآن ، كاستخدام الفعل " اصلخم " بمعنى : اشـتد ، وإن كان لفظه مناسبا – لشدة جرسه – لسياقه الذي ورد فيه ، وأيضاً مجئ الفـاء فـي : " فَإِذَا تَكَامَلَ فِي زِيَادَتِه ، نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ كَأَوَّلِ مَا بَدَأَ فِي جِرْيَتِه " ، فصياغة الجملـة هكـذا ليست دقيقة مطابقة لانحسار النيل بعد اكتمال زيادته ؛ لأن النيل – كما أشرت في التحليـل – كان يظل في فيضانه بعد اكتمال زيادته وقتاً طويلاً ، لا يقل عن ثلاثة أشهر، ولو أنه أوجـز العبارة ، واستخدم " ثم " بدلاً من الفاء ، وبنى الكلام على غير الشرط ، وقال : ثـم نكـص على عقبيه ، لكان أوجز وأبلغ ، ومثل هذا يقال في قوله : " فعند ذلك تخرج أهل ملة مخفورة ...." .

ثانياً : جاءت معاني الرسالة وموصوفاتها متسلسلة تسلسلاً منطقياً إلا في موطنين منها :

الأول : عند الحديث عن خروج أهل مصر بعد نقصان النيل لحرث الأرض وبذر الحب ، فقد وصف ــ رضي الله عنه ــ ذلك ، ثم تحدث عن اغتصاب ثمار هذا الـزرع علـى يـد الرومان ، ثم عاد فوصف إحداق الزرع وإشراقه ، وتغذيه على بلل الأرض وقطر النـدى ،

ولو أخر الحديث عن الثمار واغتصابها منهم بعد الحديث عن الزرع وبهجته وكيفية نموه ، لكان أبلغ ، وأجود ، وأكثر انسجاماً وتسلسلاً ، وإن كان القطع والأخذ في فن آخر من القول ، ثم العطف عليه بتمام المعنى الأول طريقة بلاغية معروفة ، كما ذكرت .

والثاني : عند الحديث عن عمل الترع والجسور ، حيث قال : " وأَنْ يُصْرَفَ ثُلُثُ ارْتِفَاعِهَا فِي عَمَلِ جُسُورِهَا وتُرَعِهَا "، فقدم الجسورعلى الترع ، ومعلوم أن الترع تشق أولاً ، ثم تقام الجسور على ضفافها بالتراب الخارج منها ؛ لذلك كان ينبغي عليه أن يقول : " في عمل ترعها وجسورها " بتقديم الترع على الجسور ؛ لأنها الأسبق والأهم .

ثالثاً : قلَّت أساليب التوكيد في الرسالة قلة ملحوظة ؛ وذلك لأنها تصف حقائق ثابتة في الموصوف ، والمخاطب بها ــ رضي الله عنه ــ خالي الذهن من هذه الحقائق ، ولا توجد دواعي أخرى للتوكيد .

رابعاً : أكثر عمرو ــ رضي الله عنه ــ في هذه الرسالة من صيغ المضارعة ، فأسهمت هذه الصيغ في نقل صور الموصوفات إلى السامعين بدقة بالغة ، ونظم جيد ، مما جعل عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ يُعَقِّبُ بعد أن قرأها بقوله : " للهِ دَرُّكَ يا بنَ العاصِ ؛ لَقَدْ وَصَفْتَ لِي خَبَرَاً كَأَنِّي أُشَاهِدُهُ " .

خامساً : جاءت الرسالة مسجوعة – في معظم فقراتها – فأكسبها هذا السجع إيقاعاً موسيقياً عذباً ، متناسباً مع عذوبة الألفاظ ، وسلاسة التراكيب ، وجمال الموصوفات ، مع مجيئه سمحاً ، سهلاً ، منقاداً للمعنى ، دون أن يكون مجرد طلاء لتزيين اللفظ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلاةً وسلاماً على عباده المرسلين

فهـــرس المـــراجع

١ــ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ــ ط : دار المعرفة ببيروت .
٢ــ أدب المجالسة وحمد اللسان ليوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري ــ تحقيــق : سمير حلبي ــ نشر : دار الصحابة بطنطاــ ط / أولى ١٤٠٩ هــ ــ ١٩٨٩ م .
٣ــ أساس البلاغة للزمخشري .
٤ــ أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثيرــ تحقيق ا / محمد إبراهيم البنا وآخرين ــ ط : دار الشعب .
٥ــ أســـــرار البلاغة للشيخ / عبد القاهر الجرجاني ــ تحقيق الشيخ / محمود شاكر ط : دار المدني بجدة ط / أولى ١٤١٢ هـــ ١٩٩١م .
٦ــ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ــ تحقيــق ا / عــادل أحمــد عبد الموجود وآخرين ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط / أولى ١٤١٥ هـــ ــ ١٩٩٥م .
٧ــ الإيضاح للخطيب القزوينـــي ــ تحقيــق د / محمــد عبــد المــنعم خفــاجي – ط : دار الجيل ـــ بيروت – ط / ثالثة ١٤١٤هــ – ١٩٩٣م .
٨ــ بحوث ودراسات في اللهجات العربية " من إصدارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة
٩ــ تحرير التحبير لابن أبي الإصبع ــ تحقيق د/ حفني محمد شرف ــ ط : المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ــ القاهرة ــ ١٣٨٣ هــ .
١٠ــ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشورــ نشر : دار سحنون ــ تونس ١٩٩٧.
١١ــ تحفة الأحوذي للمباركفوري ط : دارالكتب العلمية ببيروت .
١٢ــ التذكرة للقرطبي ــ تحقيق / طه عبد الرءوف سعد ــ ط : دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة .
١٣ــ التعريفات للجرجاني ــ تحقيق / إبراهيم الأبياري ــ ط : دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ط / أولى ١٤٠٥ هــ .

١٤ــ التوبيخ والتنبيه لعبد الله بن حيان ــ تحقيق / مجدي السيد إبــراهيم ــ نشــر : مكتبة الفرقان بالقاهرة .
١٥ــ جمهرة رسائل العرب د / أحمد زكي صفوت ــ نشر : المكتبة العلمية ببيروت
١٦ــ خزانة الأدب للبغدادي ــ تحقيق د/ محمد نبيل طريفي ــ إميل بــديع يعقــوب ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٩٩٨ م .
١٧ــ دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ــ تحقيق الشــيخ / محمــود شــاكر ط : دار المدني بجدة ط/ ثالثة ١٤١٣هــ ــ ١٩٩٢م .
١٨ــ الزاهر في معاني كلمات الناس لأبي بكر الأنباري ــ تحقيق د / حاتم صالح ــ نشر : مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط / أولى ١٤١٢ هــ ت ١٩٩٢ م .
١٩ــ الزهد لابن السري ــ تحقيق / عبد الرحمن عبد الجبار الفريــوائي ــ نشــر : دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ــ الكويت ــ ١٤٠٦ هــ .
٢٠ــ سنن أبى داود ــ ط : دار الكتاب العربي ببيروت .
٢١ــ السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي ــ نشــر : دائــرة المعــارف النظامية بالهند ــ ط / أولى ١٣٤٤ هــ .
٢٢ــ سير أعلام النبلاء للذهبي ــ تحقيق / محمد نعــيم العرقسوســي ، و مــأمون صاغرجي ــ نشر : مؤسسة الرسالة ــ ط / ثالثة ١٤٠٥ هــ ــ ١٩٨٥ م .
٢٣ــ شرح أحاديث من صحيح البخاري د / محمد محمد أبو موسى ــ نشر : مكتبــة وهبة بالقاهرة ــ ط / أولى ١٤٢١ هــ ــــ ٢٠٠١ م .
٢٤ــ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ــ ط : دار الفكر الإسلامي .
٢٥ــ شروح التلخيص ــ ط : دار الإرشاد الإسلامي – بيروت .
٢٦ــ الصناعتين لأبي هلال العسكري ــ تحقيق د / مفيد قميحة ــ ط : دار الكتــب العلمية ــ ط / ثانية ١٤٠٤هــ ــ ١٩٨٤ م .

٢٧ــ عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك د / محمد محيي الدين عبد الحميد ــ نشر : دار الطلائع بمصر .
٢٨ــ عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي " ضمن شروح التلخيص " .
٢٩ــ عصر الخلافة الراشدة د / أكرم بن ضياء العمري ــ نشر : مكتبة العبيكان .
٣٠ــ الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ــ تحقيق / عماد زكي الباروي – نشر : المكتبة التوفيقية بالقاهرة .
٣١ــ فضائل مصر لابن زولاق " نسخة خطية بمكتبة الأزهر رقم : ٦٦٩٣ تاريخ .
٣٢ــ فضائل مصر المحروسة لابن الكندي .
٣٣ ــ قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المالكي ــ تحقيق د / عاصم إبراهيم الكيالي ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط / ثانية ١٤٢٦ هـ ــ ٢٠٠٥ م .
٣٤ــ لسان العرب لابن منظور .
٣٥ــ المثل السائر لضياء الدين بن الأثير ــ تحقيق / محمد محي الدين عبد الحميد ــ نشر : المكتبة العصرية ــ بيروت ــ ١٩٩٥م .
٣٦ــ المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر أحمد بن محمد الدينوري ــ نشر : دار ابن حزم ــ بيروت ــ ط / أولى ١٤٢٣ هـ ــ ٢٠٠٢ م .
٣٧ــ مدخل إلى كتابي عبد القاهر د / محمد محمد أبو موسى ــ نشر: مكتبة وهبة ــ القاهرة ــ ط / أولى ١٤١٨ هـ ــ ١٩٩٨ م .
٣٨ــ معاني القرآن للنحاس ــ تحقيق / محمد علي الصابوني ــ نشر : جامعة أم القرى بمكة المكرمة ــ ط / أولى ١٤٠٩ هـ .
٣٩ــ مغني اللبيب لابن هشام ــ تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٤١١هـ ــ ١٩٩١ م .

٤٠ــ مفتاح تلخيص المفتاح للخلخالي ــ تحقيق د/ هاشم محمد هاشم نشــر المكتبــة الأزهرية للتراث . ط / أولى ٢٠٠٦م .
٤١ــ مفتاح العلوم للسكاكي ــ ط : دار الكتب العلمية ببيروت .
٤٢ــ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د / جواد علي ــ نشر : دار الســاقي ــ ط / رابعة ١٤٢٢هــ ــ ٢٠٠١ م .
٤٣ــ المفصل لابن يعيش– ط : عالم الكتب ــ بيروت .
٤٤ــ مقاييس اللغة لابن فارس .
٤٥ــ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المسمى بــ " الخطط المقريزية " لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي ــ تحقيق / محمد زينهم ــ مديحة الشرقاوي ــ نشر : مكتبة مدبولي ــ القاهرة ١٩٩٨ م .
٤٦ــ مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي " ضمن شروح التلخيص " .
٤٧ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين بن تغري بــردي ــ ط : دار الكتب المصرية .
٤٨ــ نقد النثر لقدامة بن جعفر ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٤١٦ هــــ ــ ١٩٩٥ م .
٤٩ــ النهاية في غريب الحديث و الأثر لابن الأثيرــ تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ــ محمود محمد الطناحي ــ ط : دار الكتب العلمية ١٣٩٩ هــ ــ ١٩٧٩ م .
٥٠ــ همع الهوامع للسيوطي ــ تحقيق / عبد الحميــد هنــداوي ــ نشــر : المكتبــة التوفيقية بالقاهرة .